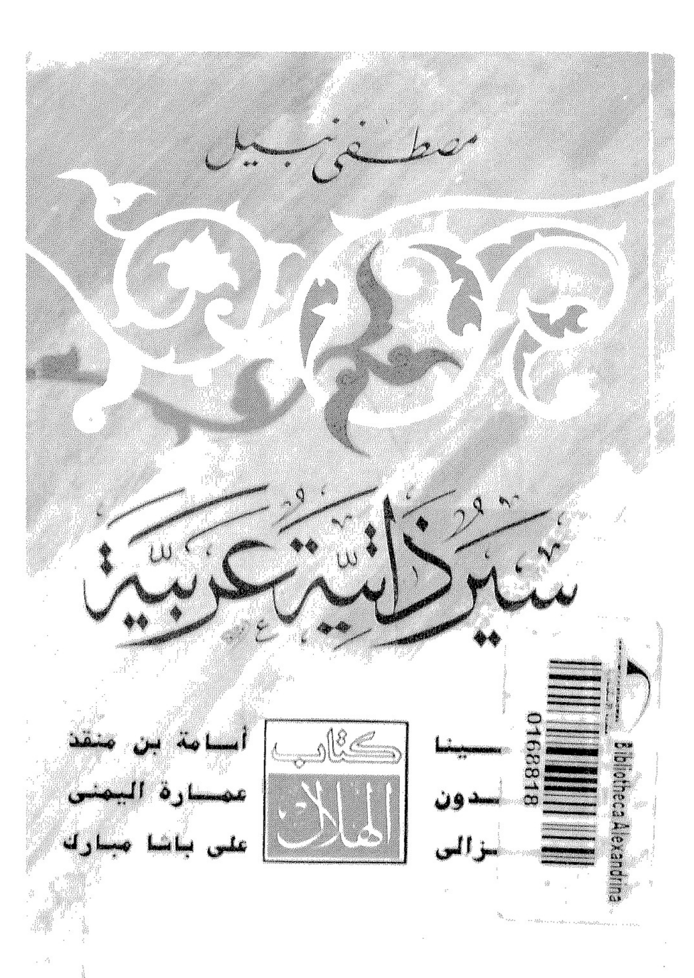

مصطفى نبيل
سير ذاتية عربية
أسامة بن منقذ
عمارة اليمنى
على باشا مبارك
ـسينا
ـدون
ـزالى
كتاب
الهلال
Bibliotheca Alexandrina
0168818

920



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No. 495 - MA - 1992 العدد ٤٩٥ رمضان - مارس ١٩٩٢

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ١٧٥ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة ، لبنان ٢٠٠٠ ليرة ، الأردن ١,٥ دينار ، الكويت ١ دينار ، السعودية ١٢ ريالا ، تونس ١,٥ دينار ، المغرب ٢٠ درهما ، البحرين ١٠٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الامارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١٠٠٠ بيسه ، غزة والضفة والقدس ٢ دولار ، لندن ١,٥ جنيه ، الجمهورية اليمنية ٣٥

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

سير ذاتية عربية

من ابن سينا حتى على باشا مبارك

بقلم

مصطفى نبيل

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنان :
محمــد أبو طــــالب

المقدمة

تجذبنى دائما قراءة السير الذاتية ، وتستهوينى متابعة التجارب الإنسانية ، أتتبع صاحب السيرة .. أرصد التفاعل بينه وبين زمانه أراقبه وهو يبدو زاهدا فى الشــهرة ، ولكنه ينجــح فى التسلل واقتحام الصورة لكى يحتل فيها مكانا بارزا ، وقليلا ما يبرأ من رغبة دفينة فى لفت الأنظار ، أتابعه وهو يؤكد أنه يخط مذكراته للتاريخ ، ثم تلمح الغاية التى يستهدفها من وراء حكايته ، أستشف ما يخفيه من أغراض ، مما يتيح دراسة ممتعة لكل من هذه الشخصيات داخل عوالمهم الخاصة والعامة .

فمنذ أن نقش الإنسان إسمه ورسمه على الحجر ، وهو يتوق إلى الخلود ، والإفلات من الفناء وعوادى الزمن ، ويأتى تسجيل السيرة الذاتية ، كإحدى المحاولات على هذا الدرب ، فحينما يكتب صاحب السيرة حكايته ، فهو فى أعماقه يسعى إلى تخليدها .

ويتناول هذا الكتاب قصة ثمان سير عربية ، كتبها ثمان شخصيــات بينهم الكاتب والسياسى والفيلسوف والمؤرخ والمتصوف .

تمتد هذه السير زمنيا من القرن الرابع الهجرى حتى القرن الرابع عشر ، وتغطى جغرافيا رقعة عالم الإسلام الممتد من بخارى إلى الأندلس .

وإذا كان التراث العربى فى أحد جوانبه يحض على الزهد والإيثار ، ويؤكد أن الواحد للكل ، فإن دلالة ظهور علم خاص هو علم الرجال - أى تراجمهم وسيرهم - يثبت شمول هذا العلم واتساعه ما يحمله التراث من إيمان عميق بدور الفرد فى المجتمع .

فالسيرة مزج دقيق بين ما هو ذاتى وما هو عام ، ونقطة وسط بين الشخصى والموضوعى ، وهى تقدم صورة حية نابضة بالحياة لأحداث وأفكار وقعت ، وهى فن أدبى رفيع أمد الدراسات التاريخية والإجتماعية بمادة لا تنضب من الصور الحية ، وتكشف الظلال والأضواء والألوان فى الأحداث والوقائع التى تتناولها .

والملاحظ أن معظم أصحاب السير ، لا يعتبرون ما كتبوه له قيمة فى ذاته ، وإنما يهدفون منه إلى الفائدة العامة والقيمة التاريخية ، وكثيرا ما يدفع الخجل والحياء كاتب السيرة إلى ستر عيوبه ، مما يجنح به إلى ترتيب الوقائع ، وإقامة معمار جديد لحمته الخيال .

وكل من يكتب تجربته بصدق ، يقدم عملاً فنيا خالصا ممزوجاً بشحنة من مشاعر وأحاسيس صاحبها ، والتى كثيراً

ما تأتى عفو الخاطر ، وهذا وحده كفيل أن يجعلها شيقة وجذابة ، وتصبح ضرباً من القصص الحى الجميل ، كما أنها فى إحدى صورها إعتراف على الملأ .

وتتسم السير الذاتية بوحدة زمنية هى عمر صاحبها ، وتنقل الحياة الإنسانية بكل ما فيها من قبح وحسن ، ومن نقص وكمال ، وضعف وقوة ، ويتيح لنا بذلك التعرف على عالم صاحب السيرة وقيمه وثقافته ومشاعره نحو الناس والحياة .

حقا .. لدينا كنوز ثمينة من السير الذاتية التى يضمها التراث العربى ، ولعلها متاحة فقط للخاصة ، إما لعدم توافرها أو لعدم التعود على قراءة الكتب القديمة ، وربما تحتاج إلى تعريف وتحقيق وتبسيط أحيانا ، فمتابعة هذه السير يفتح بابا واسعاً للإطلاع على بعض كنوز التراث العربى ، وهى وسيلة لتقديم التاريخ الحى ، ويضع يدنا على الكثير من التفاصيل التى يمكن أن تغيب عن عين المؤرخ .

ولما كنا فى عصر لم تعد الثقافة فيه وقفا على الخاصة ، تبرز أهمية قراءتها قراءة ميسرة من جانب ، ونقدية من جانب آخر ، وتعرف من خلال صفحات محدودة العديد من الصور التاريخية الحية ، وتضع أيدينا على نقاط الضعف والقوة فى حياتنا الثقافية والوجدانية .

ويمكن للقارىء أن يلمس مسار هذا الفكر ، عند قراءة هذه السير جنبا إلى جنب ، مما يعزز الثقة بما بلغناه ، ويحيى

الأمل فيما يمكن أن نبلغه ، ويلمح فى هذه السير إزدهار وتدهور الحضارة يرويها شاهد عيان .

كما كانت هذه السير النبراس الذى فتح الباب لكل من يريد تسجيل مذكراته أو اعترافاته أو يومياته ، سواء كانت أدبية أو سياسية .

وسبق وقدمت معظم هذه السير متتالية فى مجلة الهلال على مدى أكثر من خمس سنوات ، ويظهر خلالها التاريخ حلقات وراء حلقات ، وتتابع هذه السير يشبه سباق التتابع الذى يسلم خلاله الشعلة كل جيل للجيل الذى يليه .. ويقف قارىء هذه السير المتتابعة على الملاحظات التالية :

● بروز قضية حرية الكاتب ، والعلاقة بين العالم والسلطان ، التى ما تكاد تصفو حتى تتكدر ، وخاصة عندما يتداخل الدور الفكرى مع الدور السياسى ، الذى كثيراً ما يطمح إليه الكاتب ، وتأثير هذا الدور على هامش الحرية المتاح له . وقد دفع حياته ثمنا للحرية ، كل من لسان الدين الخطيب الذى قتل وأحرقت رفاته ، ولذات السبب أعدم الشاعر عمارة اليمنى ، وتعرض الشيخ الرئيس إبن سينا إلى السجن نتيجة خلل العلاقة بين العالم والسلطان ، وكادت هذه المسألة أن تودى بحياة المفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون .

● يصاحب الإزدهـــار الفكرى والحضارى قيام تفاعل فكرى مع الثقافات الأخرى ، ويصاحب الجمود الفكرى غياب التفاعل وموقف الإنغلاق وإدارة الظهر أو التعالى على الثقافات الأخرى ، كما إنتقلت العلاقة بين الشرق والغرب من التعاون إلى المواجهة ، والتى كثيراً ما تفجرت فى صور صراعات مسلحة .

● بقاء غبار معارك الماضى على الجبـاة حتى اليوم ، ومـازال قائمـا تأثير مذاهب المـاضى على الحـاضر ، ويظهر ذلك – مثـلا – فى تأثير المذهب الاسـماعيلى ، الذى يـتوزع على كتابات ابن سـينا والمؤيد لدين الله داعى الدعاة الفـاطمى وأسامة بن منقـذ ، كما كان هـذا المذهـب وراء إعدام الشـاعر عمـارة ، وهـو المذهب الذى إبتدع الستر والكتمان وأتقن إقامة تنظيمات سرية حـديدية .

ولا يسع من يتابع تاريخ هذا المذهب ، كما جاءت على لسان أصحاب السير – إلا أن يتساءل : هل إختفى تأثير هذا المذهب فى عصرنا الحاضر ، أم أنه يتناسخ فى صور وكيانات جديدة . ؟ !

خاصة ونحن نعيش عصرا تعيش فيه طبقات التاريخ مثل طبقات الجيولوجيا جنبا إلى جنب .

● عــاش العالم الإســلامى وحدة ثقافية وفكرية كـاملة، يتــوزع أعلامه ومفكروه على الأقطار المختلفة ، ولكن تأثيرهم الفكرى يتخطى المسـافات ، ويتخطى حد التقسيمات السياسية ، وكثيراً ما سافر المفكر آلاف الأميال ليلتقى بأحد الأعلام كى ويتحقق من قضية تشغله أو حقيقة علمية يحتاج إلى برهانها .

وكانت القاهرة طويلاً واسطة العقد لهذا النشاط تلعب فيه دوراً فكريا رئيسيا .

وتنوعت السير مع تنوع أصحابها ، كما إختلفت دوافع كتابتها بين واحد وآخر . فالبعض مثل ابن سينا يهدف إلى عرض فلسفته، ويكشف عن طبيعته الفكرية ، وما يميزه فى تاريخ الفكر البشرى ، والمؤثرات التى خضع لها ، ومصادر تكوينه .

والبعض الآخر مثل المؤيد لدين الله داعى الدعاة كتب أغرب السير ، وهو يقص علينا مغامراته وجهوده السياسية لنشر الخلافة الفاطمية وهزيمة الخلافة العباسية ، ولم يعتن بحياته الشخصية ولم يكتب عنها ، وغرابة هذه السيرة أنها الجزء الظاهر من جبل الثلج المختفى تحت الماء ، وهو الجزء المستور فى طرق عمل دعاة الإسماعيلية ، وكيف كانوا يحيكون المؤامرات سرا فى سبيل دعوتهم .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، فنجد رحلة عقلية شامخة قصها علينا حجة الاسلام الإمام الغزالى ، ربما كانت من أعظم السير الذاتية التى خلفتها لنا العصور الوسطى ، والذى كان يهدف إلى الدفاع عن الدين الصحيح ، وكيف يسلك الإنسان طريق الحق ويهتدى إلى الله بعد ضلال .

ثم نلتقى بأسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » ، ويظهر بين صفحاته الأمير العربى النبيل ، فى مذكرات بديعة ، تصور الفروسية العربية أيام الصليبيين ، كما تصور الحياة اليومية لأبناء الشرق ، وإن كانت لم تكتب فى تتابع منطقى ، وإنما فى شكل أخبار متفرقة ، ويتضمن مذكرات سياسية وعربية وإجتماعية عن الزمن الذى عاش فيه ، وهى مذكرات نفيسة سجل أسامة ما خبره بنفسه وشاهده بعينه .

وفى القرن السادس الهجرى كتب الشاعر عماره اليمنى مذكراته فى كتاب يسمى « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ، وهو عنوان خادع لا يتضمن أية نكت ولا يتناول الوزراء، وإنما ترجمة ذاتية تلقى الضوء على مأساة الشاعر ، كتبه بأسلوب أدبى جميل ، وفيه التعريف بحياته وقصائده ، ومن سوء حظ شاعرنا ظهوره فى إحدى المراحل التاريخية الدقيقة ، أيام دولة فاطمية تنهار ودولة أخرى أيوبية تقوم ،

وفى هذه المراحل يصعب على الكاتب أو الشاعر الحفاظ على رأسه فى مكانها ! .

فعندما قتل الوزير المصرى طلائع بن رزيك ، نشبت منافسة حادة بين ضرغام وشاور ، وعندما يستنجد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين صاحب الشام ، الذى يرسل إلى القاهرة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وسرعان ما تتطور الأمور فى ظل الحروب الصليبية واحتلال الإفرنج للإمارات العربية فى الشام ، ويصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمى ، ويعاجله الموت ، فيتولى الوزارة صلاح الدين الأيوبى ويسقط الدولة الفاطمية .

ويتهم عمارة اليمنى بالقيام بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية ، رغم أنه جاء إلى القاهرة سنى المذهب ، ويلقى حتفه ويعدم مع جماعة من أصحابه ، ولم تنفعه مدائحه لصلاح الدين ، وانقلب السحر على الساحر .

وفى القرن الثامن الهجرى ظهرت أكثر أصوات السير الذاتية عذوبة وبلاغة على يد لسان الدين الخطيب ومعاصره عبد الرحمن بن خلدون ، وفى ترجمته الشخصية حديث مفصل عن جهودهما السياسية إلى جانب نشاطهما الفكرى .

ويتعرض الكاتب لسان الدين الخطيب إلى ما يشبه محاكم التفتيش ، ويلقى حتفه فى ظل التناحر والصراع السياسى الذى أدى إلى ضياع الأندلس .

أما ابن خلدون فقد كتب أهم سيرة ذاتية فى التراث العربى ، التى تتسم بالصدق والثراء بالوقائع ، وهى مذكرات تاريخية هامة . تظهر عالم الإسلام وما ألم به ، وصور من حياة مصر المملوكية ، وهذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التى دونت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام .

وكان ابن خلدون رائدا فى كتابة فن السيرة الذاتية ، وتميزت قصة حياته بالصراحة حتى نجده يتناول بعض الأمور التى يحرص الناس عادة على اخفائها ، مثل ما دار فى لقائه بتيمورلنك ، الذى يقترب كثيرا من فن الاعترافات ، وأدت تجربته العملية إلى رؤية الواقع ومنه نفذ إلى حركة المجتمع وتاريخ العمران البشرى .

أما السير الذاتية التى كتبت بعد ذلك ، فمنها الترجمة الذاتية لكل من جلال الدين السيوطى والسخاوى ، وفى العصر العثمانى كتب الشعرانى « لطائف المنن » ، ويظهر خلالها ضعف الثقافة العربية فى أواخر العصور الوسطى ، عندما اقتصرت على اجترار الماضى بدلا من التأليف والابتكار ، وتظهر فى هذه المرحلة المختصرات ، واقتصار الثقافة على

اللغة والفقه والحديث ، وضعف العلوم مثل الرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها ، مما يعنى الولوج إلى عصر الجمود فالمسافة بين مصنفات ابن سينا ومصنفات جلال الدين السيوطى ، هى الفارق بين الإزدهار والجمود .

وتختم هذه السيره بأهم من ترجموا لأنفسهم فى العصر الحديث على باشا مبارك ، الذى كتبها سنة ١٩٨٩ م ، أى قبل وفاته بأربع سنوات ، وهى سيرة كاملة تعبر عن جيل النهضة .

ويحقق هذا الكتاب رسالته ، اذا دفع القارىء إلى قراءة هذه السير فى أصولها .

١

أبو على بن سينا

سيرة ذاتية : ٣٧٠ هـ - ٤٢٨ هـ

حكيم الشرق : يعالج البدن

وينير العقل .

الشيخ الرئيس ، أبو على بن سينا ، أبرز حكماء الشرق ، إهتم به الكثير من الباحثين ، وكتبوا عن إنجازاته العديد من الكتب ، أبرزوا خلالها مكانته فى تاريخ الفكر والعلم .

ونقدم هنا سيرته الذاتية التى لا تتجاوز بضع صفحات ، ولكنها تقود إلى عالمه الرحيب ، يقدم خلالها نبض العصر الذى عاشه ، وينقل لغة وثقافة القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الإسلام .

البداية للدخول إلى عالم ابن سينا ، هو التعرف على ابن سينا نفسه ، ملامحه الشخصية ، قدرته على التحصيل والتأليف ، وهل تنطبق صورته فى المخيلة العربية على صورته الواقعية .

كان ابن سينا عظيم الذكاء ، عظيم النشاط ، حاد الذاكرة، ممتلئا بالحياة والجسارة العقلية ..

وهو لا يقل عن أفلاطون أو أرسطو فى العبقرية ، وفى التفكير وملكة الخيال ، اتسمت أعماله بالموسوعية ، وهى ليست مثل موسوعية القلقشندى أو النويرى ، الذى يصنف معارف غيره ، ولكنه موسوعى بتعدد إهتماماته وقدراته ، وتناوله فى كتاباته كافة المسائل ، فقد قرأ كثيرا وأنتج كثيرا ، وعاش حياة عريضة ، وعمل بالسياسة ، وتولى الوزارة ، ولم يتوقف أبداً عن الإنتاج الفكرى الغزير ، كتب فى الفلسفة والدين واللغة والفلك والموسيقى ، حتى أن له فى الموضوع الواحد أكثر من كتاب .

وهو شديد الاعتداد بنفسه وهو يروى سيرة حياته ، فالناس « عجبوا من علو تحصيله » ، وبالفعل كان أشهر أطباء عصره، وأشهر الفلاسفة ، حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره، واتقن الطب وهو دون العشرين ..

فاقت قدرته على التحصيل قدرته على التدوين والتأليف .

وكان يردد لأصدقائه .. « إنى أوثر عيشاً قصيراً رحبا على حياة طويلة ضيقة » ، وقد عاش حياة فكرية راقية ، وحياة واقعية يتلمس من تفاصيلها خبرته ، فهو محب للحياة ومولع بالنساء ومتذوق للموسيقى والشعر والغناء .

يقول عن الشراب .. « إنه محرم على الحمقى والمغفلين ، ومحلل للعقلاء .. » فإذا كانت صورة المفكر والعالم فى المخيلة العربية ، تتسم بالهيبة والوقار ، فصورة ابن سينا كما تقدمها حياته غير ذلك، فقد روى تلميذه الجورجانى ، أنه يحب الحياة ومتعها ، يقبل عليها ويخوض غمارها ، ويستمتع بمباهجها ، وتوزعت حياته بين الفكر والسلطان والشهوة ، رغم ما بينهم من تعارض ، ولكنه لا يرى بأسا فى الجمع بينها ، فكان يعمل فى أمور الوزارة بالنهار ، ويجمع طلبته ويملى عليهم فى الليل ... « فإذا فرغنا حضر المغنون على إختلاف طبقاتهم ، وهيىء مجلس الشراب بآلاته » ، وينصح طلبته « أما اللذات فيستعملها على إصلاح الطبيعة ، وإبقاء الشخص أو النوع أو السياسة ، أما المشروب فإنه يهجر شربه تلهيا بل تشفيا وتداوياً .. »

فهو القائل :

فى الشرب لا تقصد إلى الكثير ... واقنع من النبيذ باليسير
لا تدمن النبيذ كل يوم ... ولا تكن تشرب بعد الصوم
إياك أن تسهر طول الدهر ... إن لم يكن فمرة فى الشهر

ويضيف تلميذه .. " كان قوى القوة كلها ، وكانت قوة المجامعة فى قواه الشهوانية أقوى وأغلب »

ورغم ذلك نجده يقول .. « اللذات مراتب بحسب سلم القيم، فلذة الشهوات من طعام وشراب أدنى مرتبة من لذة الغلبة وحب الرياسة والسلطان ، ولذة الحياة العقلية أشرف وأتم من اللذات الشهوانية ، ثم إن لذة المعقول أدوم من لذة المحسوس ولذلك كانت اللذة الدائمة أرفع من اللذة المتغيرة ، والعلة التى تجعل الانسان لا يبلغ اللذة العقلية هو إتصاله بالبدن ، وانغماسه فى الرذائل ، ولا سبيل له إلى تحصيل اللذة الشرعية إلا بأن يخلع ربقة الشهوة والغضب عن عنقه ، فيطالع عندئذ لذة المعقولات وما فيها من بهاء .. »

وربما كان تفسير التعارض فى أقواله ، أنه مثل الفنان الذى يخوض تجاربه لكى تزيد معارفه ، فجولاته فى واقع الحياة ، لم تكن إلا مغامرات من أجل المعرفة .

● **ابن سينا أحد علامات الفكر الإنسانى .**

فالكندى والفارابى وابن سينا هم أساطين الفلسفة الإسلامية ، يحتاج كل منهم إلى مجلدات للإحاطة بما أضافه ، ولكن هذه محاولة سريعة للإلمام بما يمثله الشيخ الرئيس . إستوعب ابن سينا كل معارف عصره ، وأحاط بجوانب الحياة تجربة ، وفكراً ، وبذل جهداً كبيراً للتوفيق بين الإسلام

والفلسفات السابقة عليه ، بين كل من أفلاطون وأرسطو وأفلوطين من جانب ، وكل من الفارابى وبعض فرق الإسماعيلية وبعض الفلاسفة من قدماء الهند وفارس من جانب آخر .

وأهم ما جاء به ، دعوته إلى " العقلانية " ، فأخذ يفسر كافة الظواهر من خلال المنهج العلمى ، يقول " قد يبلغك عن العارفين أخبار يكاد تأتى بقلب العادة ، فتبادر إلى التكذيب ، وذلك مثل ما يقال إن عارفا إستسقى للناس فسقوا، واستشفى لهم فشفوا .... ومثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح ، فتوقف ولا تعجل ، فإن لأمثال هذه أسبابا فى أسرار الطبيعة .. »

والمدينة الفاضلة عنده ... « يحرم فيها الحاكم البطالة والتعطل.. ويقاوم فيها الحاكم الفساد ، ويمنع الميسر والربا والزنا ، ويلتفت إلى أعداء المدينة » أى الطابور الخامس ..

لذلك كان طبيعيا مع بشائر نهضة الشرق فى أواخر القرن الماضى ، أن يجد السيد جمال الدين الافغانى فى كتب ابن سينا المعين للدراسات الفلسفية .

● الحكيم ..

ويجدر ملاحظة أنه فى التراث العربى تطلق صفة الحكيم على الطبيب وعلى الفيلسوف معاً ، فلكى تكون طبيبا لابد أن

تكون مفكرا ، وارتبط الطب منذ نشأته بالفلسفة ، ويكاد يكون معظم فلاسفة الشرق أطباء ، من الكندى وحتى ابن رشد ، وفاقت شهرة ابن سينا كطبيب شهرته كفيلسوف ويبدأ المفكر بالطب الذى يختص بالأبدان وأمراضها وعلاجها ، ثم ينتقل للبحث في النفوس والعقول، فما معنى كثرة المعارف إذا عجزت عن علاج الأبدان والنفوس . ؟!

واتبع ابن سينا فى دراسة الطب منهجه فى السؤال والبرهان ، وكان كتاب « القانون فى الطب » ، هو الكتاب الذى استمر يدرس فى أوروبا مدة ستة قرون ، وأورد فيه ابن سينا قائمة تضم ٧٦٠ عقاراً، كان العطارون يبيعونها فى زمانه ، ولم يكن غريبا أن التقى وسط صحراء موريتانيا بطبيب تقليدى، مازال يعتمد فى علاجه على ما جاء فى كتاب ابن سينا .

وعلاوة على العلاج بالأعشاب ، كان أول من إهتدى للعلاقة الوثيقة بين الانفعالات النفسية وأوجاع جسم الانسان ، وعرف الدواء لداء عضال ، أعراضه إرتعاش الشفتين وزوغان العينين، والحمى وارتفاع الحرارة ، وهبوط الوزن ، والسرحان حتى التوهان، أما المرض فهو فقدان الحبيب ، أما العلاج ، فهو الجمع بين المحب ومحبوبته .

ولم يكن غريبا على ابن سينا وهو العارف بالموسيقى ، أن يتبين آثار النغم على المرضى جسديا ونفسيا ، ومن

منجزاته التى يذكرها له تاريخ الطب ، دعوته للتخدير عن طريق الفم فى العمليات الجراحية ، ويقال أن المرقد (البنج) قد تم إستخراجه على أيامه من الشيلم ، كما وصف الأمراض التى تنتقل بالعدوى ، وأول من أوصى باختبار العقار الجديد عن طريق تجربته على الحيوان قبل الإنسان .

وكلما طالعت مصنفاته فاجأتك ابتكاراته ..

ومنها أنه قبل " بافلوف الروسى " اكتشف العلاقة بين كثرة النشاط والمهام التى يقوم بها الانسان وبين النسيان الذى يرجعه إلى ما يطلق عليه التداخل الرجعى والتداخل اللاحق وله ايضا فضل بيان تأثير التغذية والمناخ على الصحة ، وانتشار الأمراض بسبب القذارة والمياه الملوثة .

● ماذكره عن نفسه .

وابن سينا أحد الذين دونوا سيرة حياتهم ، وهى سيرة مشهورة أملاها على تلميذه أبو عبيدة الجوزجانى ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم أكمل التلميذ بقية قصة حياة أستاذه ، وسجلها كتاب أبو أصيبعه .

يقول القفطى فى أخبار الحكماء .. « سأل أحد التلاميذ ابن سينا أن يحكى له تاريخ حياته ، فأملى عليه ما سطره ، ويحتفظ المتحف البريطانى بهذه الترجمة ضمن مخطوطاته ،

ونشر المستشرق البريطانى موللر هذه الترجمة فى المطبعة الوهبية فى مصر عام ١٣٠٠ هـ .

ويطرح الدكتور فؤاد الأهوانى فى دراسته عن ابن سينا السؤال التالى . هل السيرة الذاتية كافية للتعرف على كل جوانب الشخصية . ؟

ويجيب : « نحن نعلم أن ابن سينا من القلائل فى الإسلام الذين كتبوا سيرة حياتهم ..

وقد تصور الكثيرون أن هذا التدوين ألقى الضوء على حياته وصور لنا شخصيته ، على أن الشيخ لم يذكر إلا ما أراد أن يفصح عنه ، وقنع المؤرخون بهذه السيرة ، ولم يسع أحد إلى الحديث عنه إلا بما ذكره هو عن نفسه ، غير أنه لم يصور – فى رأيه – سوى المظهر الخارجى من شخصيته ، وبخاصة شخصيته العلمية والسياسية ، أما نوازعه الباطنة ، وخوالجه الخاصة ، وصفحات نفسه من آمال ومخاوف ، ورغباته فى الحياة ، وما يؤثره ويحبه ، فلم يذكر منه شيئا .

ويرى د . الأهوانى أن هناك مصدراً آخر نجده فى شعره ، أبان خلاله الشيخ أنه لم يكن من الزهاد ، بل أقبل على الحياة وخاض غمارها ، واستمتع بما فيها من مباهج .

ولكنه كان فى سيرته صادقا ، ويكفى للتدليل على ذلك أنه ذكر أنه يسترد حيويته بالشراب ، ونعرف من خلال سيرته الذاتية ، أنه أبو على ابن سينا ولد فى إفشنه سنة ٣٧٠ هـ - ٩٨٠ م ، وهى قرية قرب بخارى ، ومن أسرة فارسية ، وقد أبدى الفتى منذ نعومة أظفاره قدرة كبيرة على التحصيل ، حفظ القرآن وهو فى سن العاشرة ، فمواهبه ظاهرة حتى أصبح حجة فى الفلك والطب والفلسفة والرياضة ، ولما يبلغ العشرين ، وتتلمذ على يدى اسماعيل الزاهد ، ثم إشتغل بالمنطق والهندسة وتتلمذ على يدى عبدالله الناتلى ، ثم أقبل على دراسة الطب وقرأ ما ترجم عن اليونان والهند ، وأخذ فى معالجة المرضى وهو ابن ستة عشر ربيعا .

ولقب فى عصره بالشيخ الرئيس وهى تسمية ليست عفوا ، فالشيخ لقب علمى ، والرئيس لقب سياسى ، بعد أن جمع بين الاشتغال بالعلم والسياسة معاً ، ويلاحظ على العصر الذى بزغ فيه ، أن التفاعل كان قائما بين كل ثقافات العالم ، وكانت الدولة العباسية هى أقوى دول العالم ، تبسط نفوذها على منطقة شاسعة تصل إلى ما وراء النهر وأفغانستان ، وبلاد فارس وجزيرة العرب والعراق والشام ومصر ، وكانت الحضارة الاسلامية وريثة كل حضارات العالم القديم .

ورغم أن هذه الدولة بدأت تتفكك فإن التفاعل الثقافى داخلها كان متواصلاً فقامت الدولة الفاطمية فى مصر ، والدولة الصفاوية فى سجستان ، والدولة السامانية فى بخارى (٢٦١ هـ - ٣٨٩ م)، وبقيت المنافسات بينها فى الفكر والعلم والأدب .

وتبين سيرته الذاتية ، أن اللغة العربية كانت هى لغة الفكر والثقافة فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، يؤثر مثلا ما يقوله المذهب الاسماعيلى فى مصر عن النفس والعقل فى بقية الدول، ومن بينها بخارى مسقط رأس ابن سينا ، كما تظهر السيرة الدور الكبير الذى يقوم به " المعلم " ، ومدى إنتشار المكتبات والحرص عليها ، ولم تكن ثقافة العصر ، تقتصر على الفقه والتفسير والحديث - كما يتصور البعض - ، بل شملت الفلسفة والفلك والرياضة والموسيقى .

☆ ☆ ☆

وحان الوقت لنتابع معا نص الجـزء الأول من سيرته الذاتية :

« كان أبى رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير نوح بن منصور السامانى ، واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميش من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى وبقربها أفشنة ، تزوج أبى

منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم إنتقلنا إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، واكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب ، وكان أبى محمد أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدأوا يدعوننى أيضا إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ أبى يوجهنى إلى رجل يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء الى بخارى أبو عبدالله الناتلى ، وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى اسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين .

وقد ألفت طرق المطالبة ووجوب الإعتراض على المجيب ، على الوجه الذى جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأت بكتاب « إيسا غوجى » على الناتلى ، ولما ذكر لى حد الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ؟ .. أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل التعجب، وحذر والدى بشغلى بغير العلم ، وكان أى مسألة يقولها أتصورها خيرا منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما

دقائقه فلم يكن عنده فيها خبرة ، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب " إقليدس " ، قرأت من أوله خمسة أشكال أو سنة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ، ثم إنتقلت إلى المجسطى - كتاب بطليموس ، وهو فى علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والافلاك - ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ، قال لى الناتلى : تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم إعرضها علىّ لأبين لك صوابها من خطئها ، وما كاد الرجل يقوم بالكتاب ، أخذت أحل ذلك الكتاب ، فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه . ثم فارقنى الناتلى ، واشتغلت بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والالهى . »

● الفارابى والغزالى .

ثم يروى الشيخ الرئيس كيف تكونت معارفه ، فخلال نحو عامين قرأ المنطق والفلسفة - كما رأينا - بفروعها المختلفة ، بعد أن إستغنى عن المعلم وأخذ يعلم نفسه ، وإذا إستعصى عليه شىء فى يقظته وجد حله فى منامه ، كما كان من عاداته أنه إذا إستشكلت عليه مسألة أن يتردد إلى الجامع ويصلى ، حتى ينفتح له ما يصعب عليه ، ويتيسر له حلها .

واحترف ابن سينا مهنة الطب ، فكان لكل كاتب أو مفكر حرفة يعيش منها ، ومنحه الطب المكانة الإجتماعية ، ومن خلالها عمل بالسياسة ، ووصل إلى ضالته من الكتب النادرة .

وعندما تعمق فى الفلسفة وانتقل إلى الإلهيات أى ما وراء الطبيعة ، قاده الفارابى المعلم الثانى ، ووجد لديه حل كل المسائل المستعصية ، وله قصة مع كل من الفارابى والامام الغزالى ، فقد وجد فى مؤلفات الفارابى ما يعينه .

أما الامام الغزالى فقد خالفه - رغم انه ولد بعد وفاة ابن سينا سنة ٤٥٠ هـ - إنه يرفض الفلسفة ، فالفلاسفة - كما يقول - يعترفون بمبدأ السببية ، أما الغزالى فينكره ، وسجل ذلك فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، فالاعتراف بمبدأ السببية يستبعد القدرة الإلهية ، فليس هناك مؤثر سوى الله سبحانه ، وبناء عليه ليست النار هى سبب الإحتراق ، ولكنها السبب الظاهر فقط ، أما العلة الحقيقية فتكمن فى الناموس الإلهى .

أما ابن سينا فيرى أن لكل موجود علة فى وجوده ، عدا الله لأنه واجب الوجود بذاته ، ولأنه مبدأ كل معلول ، واتهم الغزالى الشيخ الرئيس بالكفر لمسائل ثلاث قوله بقدم العالم ، وعدم المعاد الجثمانى ، وعلم الله بالجزئيات (الجبر والاختيـــار) .

ولنتابع معا هذا الجزء من سيرته الذاتية كما يرويها ..

« وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ ، ثم رغبت فى علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أني برزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرء ون عليّ علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة ، وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا إشتغلت فى النهار بغيره ، . وكلما كنت أتحير فى مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لى المغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل إلى دارى ، وأضع السراج بين يدى وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود اليّ قوتى ..

● الحل فى المنام

ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيرا من المسائل إتضح لى وجوهها فى المنام .

ومازلت كذلك حتى إستحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الامكان الإنســانى ، وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كمـا علمته الآن ، لم أرد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعى والرياضى .

ثم عدلت إلى الإلهى وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس علىّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراء ته أربعين مرة ، وصار لى محفوظا ، ومع ذلك لا أفهمه ولا أفهم المقصود منه ، وأيست (يئست) من نفسى، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادى عليه ، فعرضه علىّ ، فرددته رد متبرم ، معتقدا أن لا فائدة فى هذا العلم .

فقال لى : إشتر منى هذا ، فإنه رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت إلى بيتى ، وأسرعت فى قراء ته ، فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان محفوظا على ظهر قلب ، وخرجت بذلك وتصدقت فى ثانى يوم بشىء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى .

● العالم والسلطان .

وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور (توفى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) إتفق له مرض تلج (تردد) الأطباء فيه ، وكان إسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يديه ، وسألوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته ، وترسمت بخدمته ، فسألته يوما الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، وفى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب مالم يقع إسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضا من بعد .

فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه ، فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لا يتجدد لى بعده شىء »

● ابن سينا فى محبسه !

ونأتى الى الجزء الثالث من سيرته الذاتية ، عندما كانت حياة « الشيخ الرئيس » عاصفة مضطربة تخللتها أسفار

عـديدة ، ولا يكف عن كتابة مؤلفـاته ، يكتب أحيـانا خـلال السفر ، وأحيانا خلال محبسه ، وأحيانا أثناء الفراغ من عمله الوزارى ، وكثيرا ما كان يختفى من الجميع .

وتتسم العـلاقة عادة بين العـالم والسلطان بالدقة والحساسية ، يجذبه أبهة السلطان والنفوذ الذى يحيطه ، ويبعده الرغبة فى التحرر من هذا النفوذ ، والتفرغ لعلمه ، وعندما يحصل على النفوذ يزهد فيه لكى ينصرف الى المتعة العقلية ، ثم يعود ويخشى سطوة السلطان وجبروته .

فبعد أن مات والده وهو فى الثانية والعشرين ، أخذ بقية حياته يتنقل من بلاط أمير الى آخر ، وكان مسرح نشاطه السياسى المنطقة المحيطة ببحر قزوين ، فتنقل بين جرجان وخراسان وداغستان . وتقلد الوزارة مرتين فى همدان ، واتصل بالأمير نوح ابن منصور ، وشمس الدولة البويهى .

وفى ظل صراع السلطة نفى مرة وسجن أخرى عندما إتهمه شمس الدولة بمكاتبه علاء الدولة ، وحرض عليه فسجن فى قلعة فردجان ، ونظم قصيدته .

دخولى باليقين كما تراه .. وكل الشك فى أمر الخروج

ولنتابع الجزء الثالث من سيرته كما يرويها .

وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى ، فسألنى أن أصنف له كتـابا جـامعاً فى هذا العلم الفلسـفى،

فصنفت له « المجموع » ، أتيت فيه على سائر العلوم عن الرياضة ، ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى ، وكان فى جوارى أيضا رجل يقال له أبو بكر البرقى فقيه النفس متوحد فى الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول فى قريب من عشرين مجلداً ، وصنفت له فى الأخلاق كتابا سميته كتاب « البر والإثم » ، وهذان الكتابان لايوجدان إلا عنده ، إذ لم يعد أحد ينسخ منهما .

ثم مات والدى وتصرفت بى الأحوال ، وتقلدت شيئا من أعمال السلطان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والإنتقال إلى كركانج ، وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيراً ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون ، وكنت على زى الفقهاء.

وأثبتوا لى مشاهدة داره بكفاية مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ومنها إلى إبيورد ومنها إلى طوس ومنها إلى شقان ومنها إلى سمنان ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوسى ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوسى وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ، ومرضت بها مرضاً صعبا وعدت إلى جرجان ، وأنشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

كما عظمت فليس مصر واسعى

لما غلى ثمنى عدمت المشترى

● المشهد الأخير .

يصف تلميذه المشهد الأخير بقوله " .. صار أمره فى السنة التى حارب فيها الأمير فى الفراش على باب الكرخ إلى أن أخذه قولنج – قرحة المعدة – ولحرصه على رفقة الأمير إشفاقاً من هزيمة يدفع إليها ، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى كرات ، فتقرح بعض أمعائه ، فكان ينتكس ويبرأ كل وقت .. وعلم أن قوته قد سقطت وأنها لا تفى بدفع المرضى ، فأهل مداواة نفسه ... "

ولعل الخطر الذى يخشاه « الشيخ الرئيس » هو الوشاية والمكيدة، فحرص رغم مرضه حضور مجلس الأمير .

وعندما جاء أجله .. « إغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء، ورد المظالم على من عرفه ، واعتق مماليكه ، وجعل يختم القرآن كل ثلاثة أيام ختمة ، ثم مات » .

وبالسخرية القدر ، توفى أشهر الأطباء وأعظمهم نتيجة خطأ فى العلاج ، فقد مات نتيجة إسرافه على نفسه ، واكثاره فى علاج قرحة المعدة المصاب بها ، فقد أسرف حتى تقرحت أمعاؤه!

وكانت وفاته فى همذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ،ولم يتجاوز عمره الثمانية والخمسين .

٢

المؤيد لدين الله داعى الدعاة

الشيرازى

(٣٩٠ هـ - ٤٧٠ هـ)

هذه سيرة المؤيد لدين الله داعي الدعاة الشيرازي . وهي سيرة رجل دين وسياسة ، كتبها في القرن الخامس الهجري ، نقل خلالها حياة أحد دعاة الفاطميين .

وتتناول السيرة مرحلة تاريخية تزخر بالاثارة والغموض .

وأهمية القراءة الجديدة لهذه السيرة ، أنه في عصرنا الراهن تعيش الطبقات التاريخية الجيولوجية جنبا إلى جنب ، تناسخت المذاهب وظهرت في صور جديدة وتحول التشيع في مصر إلى التصوف ، ووقفت أفكار القرون الوسطى إلى جانب أفكار القرن العشرين .

وليست هذه السيرة مجرد تاريخ ، إنها ترد بالوقائع على أولئك الذين يدعون إلى صب الحاضر والمستقبل في قوالب الماضي ظنا منهم أن هذه القوالب هي الدين ، بينما الإسهام ضروري على طريق المستقبل يكون بالمعرفة النقدية والوعي وحقيقة تيارات الماضي .

أول ما يدعو اليه المذهب الاسماعيلي ، الذي كان سائدا في مصر في العصر الفاطمي ، هو الستر والكتمان فكيف يكتب داعي الدعاة سيرته الذاتية ، والى اى مدى يفصح عن أسرار الدعوة وتنظيم الدعاة ؟!.

إن قراءة سيرة المؤيد فى سياقها التاريخى تفصح عن الكثير من الحقائق والأسرار ، لذلك استمرت فى طى الكتمان كجزء من ستر علومهم وأسرار مذهبهم ومازالت هذه السيرة أشد الكتب سترا عند البهرة ورثة المذهب الفاطمى ، فلم يقصد المؤيد من كتابتها العلم أو التاريخ ، بقدر تحقيق غاية محددة ، وليس للبعد الشخصى سوى مجال ضيق ، فلم تتناول طفولته أو أفراد عائلته أو أصدقاءه أو شيوخه ، ولم تكن نقطة البداية فى كتابة سيرته التعبير عن إدراكه لأبعاد الحياة من حوله ، بل شرع فيها سنة ٤٢٩ هـ ، لكى يشرح العلاقة بينه وبين السلطان كاليجار البويهى فى إمارة شيراز، ومن يومها وهو يسجل الأحداث التى تعرض له ، وتصل إلى نهايتها بعد نجاحه فى اقتحام مقر الخلافة العباسية وقد دعا للخليفة الفاطمى على منابر مساجد بغداد .

وتتعرض هذه السيرة إلى الحياة السياسية فى مصر ، وما أحاطها من مؤامرات .

وحقق وقدم هذه السيرة الدكتور محمد كامل حسين وتمكن من الحصول عليها رغم حرص ابناء المذهب الاسماعيلى على اخفاء كتبهم ، وتعتبر من بدايات السير الذاتية فى التراث العربى .

ظل الغموض والإثارة يحيطان بالمذهب وبالفرق الكثيرة التي خرجت من عباءته ، والتي يكاد بعضها أن يكون مثل الأحاجي والألغاز التي تبحث عن من يكشفها ، مما جذب اهتمام عدد من الدارسين ، ومن هؤلاء إيفانوف وبرتولد الروسيان ، وبرنارد لويس البريطاني ، وفلهوزن الألماني وغيرهم ..

نشأ صاحب السيرة هبة الله ابن موسى بن داود في شيراز حوالي سنة ٣٩٠ هـ ، وكان والده أحد دعاة المذهب الفاطمي ولم يتناول في سيرته تفاصيل طفولته وصباه ووضعه العائلي والشخصي، كما جرت عليه السير الذاتية فيما بعد ومجمل حياته أنه تدرج في مراتب الدعوة حتى أصبح حجة فارس ، وصل إلى أعلى مراتب الدعوة ، فأصبح داعي الدعاة وحجة الأمام سنة ٤٥٠ هـ ، ونفاه الوزير عبد الله بن يحيى من مصر ، فرحل الى القدس ثم عاد الى مصر مرة أخرى ، واستضافه في بيته ملك بن مالك قاضي الصليحيين في اليمن مدة خمس سنوات ، تتلمذ خلالها القاضي على يديه وأخذ أسرار الدعوة منه ، وأصبح المؤيد أستاذا للدعوة في اليمن .

ووصول المؤيد إلى تلك المرتبة التي لم يصل اليها في تاريخ الاسـماعيلية سوى عدد قليل من الدعاة ، يزيد من قيمة

سيرته ، ويتمتع صاحب السيرة بثقافة واسعة ، ووصفه أبو العلاء المعرى الذى كثيرا ما ناظره ، « لو ناظر أسطارليس لجاز ان يفحمه ، أو افلاطون لنبذ حججه خلفه » ، ويصف المؤيد نفسه . " أنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها ، ولا يماثلنى أحد فيها " .. وهذا الاعتداد الشديد بالنفس شرط لقوة وتأثير سيرته ، التى تأتى كتجربة إنسانية حية ، وتشخيص وتصوير صادق لعصره ، أفكاره وقيمه وأبطاله ، تتميز بوحدة عمر صاحبها ، وتصيغ حكاية لها بداية ونهاية .

وهى سيرة من نوع خاص فهى لا تزدحم بالأحداث والمغامرات، ولكنها سيرة عقلية تزدحم بالعمل والحركة ، وتذخر بالمناظرات الفقهية بين صاحبها وخصومه ، يدحض حججهم ، ويكتب الرسائل رداً عليهم ، ويؤدى المهام الصعبة ، ويتنقل بين شيراز والشام والعراق ومصر والقدس .

● قضايا القرن الخامس

ومسألة بدء شهر رمضان ، هى المسألة التى أدت لمحنته فى شيراز ، تلك المحنة التى دفعته لكتابة سيرته ، عندما وقعت أول أزمة بينه وبين السلطان سنة ١٠٣٧ م – ٤٢٩ هـ ، ويسجلها بقوله .. " زعم البعض أن شهر رمضان يتم تارة وينقص

أخرى ، وأن الصيام بنى على رؤية الهلال ، ويقول الله سبحانه " أياما معدودات " ، والأيام المعدودة هى التى لاتزال معدودة ، فلو كان يحمل أن يكون شهر رمضان تارة ثلاثين يوما وتارة تسعة وعشرين يوما ، لما ذكر أياما معدودات قطعا " .

والعجيب أن هذه المسألة مازالت مطروحة ومحل خلاف بعد مايزيد على ألف عام ، وكانت أيضا من أهم أسباب النهضة العلمية فى مصر فى علوم الرياضة والفلك ، وعرف المصريون الاهتمام بدراسة النجوم وحركاتها ، وأقاموا لها المراصد .

ويقول " إن بعض الناس خاضوا في حديث الفورة التى جرت في شيراز .... واتهمت برفض السنة ونشر البدعة ، وأن الكاتب يستعد مع جماعته للهجوم على دار السلطان بالقلع والحرق والقتل " .

ويؤكد المؤيد فى موضع آخر أنه .. " من عمل بالباطن والظاهر معا فهو منا ، ومن عمل بأحدها دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا " .

ويروى أنه رغم خروجه هاربا من شيراز ، فإنه نجح فى التقرب من السلطان ، وأقنعه بدعوته بعد عدة مناظرات ، وأصبح السلطان تلميذا له فى أمور الدين .. " .. فدعاة

الاسماعيلية أقدر الناس حجة وألسنهم فصاحة ، وأكثرهم موهبة في المناظرة ، ويعود ذلك للنظام الدقيق المتبع في إعدادهم وتدريبهم ... وجرت المناظرة مع السلطان مكاتبة لا مشافهة ، لأني تحرجت من المشافهة صونا للعرض مما يخلط بالمشافهة في المناظرة من سوء الأدب ، وقصدت أن يكون ما يدور بيننا من الكلام يتجسم بالكتابة لتبقى فائدته لمتأمله ، فسكن جأش السلطان واطمأن قلبه .. وقال : إني أسلمت نفســي وديني إليك .. واستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة جمعة .. "

ولا تدوم الدنيا على حال ، وسرعان ما تتغير الأحوال ، وينقلب السلطان على المؤيد تحت ضغط الأهالي ومبعوث الخليفة العباسي ويبتعد عنه السلطان ويمنعه من الاتصال بالناس .. " ونجح سعي مبعوث الخليفة باقتلاعي من تلك الديار وقصدني بالتشرد منها .. وكنت إلى حين انصرافه لا أعد نفسي في غمار الأحياء خوفا من تسليمي إليه ، وما بعد ذهابه ، ما كنت آمن المكائد التي لم يزل الخصوم عاكفين عليها بحضرة الســلطان ، فكنت إذا أصبحت لأرجو أن أمسي ، وإذا أمسيت أرجو أن أصبح ، لما كنت بصدده ، من قصد العوام وبغتاتهم وكبساتهم في الليالي والأوقات الغامضة،

لا سيما وقد ثبت فى نفوسهم أن السلطان خصمى ، وإنما تنكف عوادى العامة عن أمثالى وكان يبلغنى كل يوم من البلاغات فيما يقع من التظـــاهر علىّ ، والإغرار بى ما ترجف الأرض من بعضـــه " .

● القرامطة والدروز !

وتبين كلماته عن الصراع الذى دار على أرض شيراز ، بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وهو صراع أعنف من الصراع الذى يدور بين الاسلام وخصومه ، رغم أنه مجرد صراع سياسى يلبس لباسا فقهيا أحيانا ومذهبيا أحيانا أخرى !

وحان الوقت قبل المضى مع المؤيد فى سيرته أن نلم بلمحات عن المذهب الاسماعيلى ، الذى يدعو إليه المؤيد ، ونتعرف على ابعاد هذا الصراع الذى شهده عالم الأسلام .

بعد جهود ومحاولات كثيرة نجح المذهب الاسماعيلى فى إقامة دولة فى المغرب وأخرى فى مصر وثالثة فى اليمن ، بعد ملاحقة الأمويين ومن بعدهم العباسيون لفكرة التشيع لأهــل بيت الرســـول ﴿ﷺ﴾ . وينسب الاسماعيليون إلى اسماعيل بن جعفر، ويعرفون بالسبعية تمييزا لهم عن الإثنى عشرية ،

وقامت حركتهم على الاستتار وعلى تنظيم سرى محكم وكفء ، فبعد أن أجبر محمد بن اسماعيل على ترك مسقط رأسه فى المدينة ، والهجرة إلى خوزستان بأواسط آسيا ، ومنها إلى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين ، ويسجل مؤرخو الاسماعيلية أن أسرة محمد بن اسماعيل قدمت إلى الشام ، واستقرت فى مدينة السلمية القريبة من حمص فى القرن الثالث الهجرى ، وقد وصلوها متنكرين خوفا من بطش أعدائهم ، واستمرت غامضة الفترة ما بين سنة ١٤٧ هـ عند وفاة جعفر الصادق حتى سنة ٢٩٦ هـ السنة التى ظهر فيها عبيد الله المهدى فى المغرب بسبب ستر الأئمة ، وقد أعطى هذا الستر فرصة لعدد من المؤرخين للتشكيك فى نسب أئمة الاسماعيلية ...

ويسجل تاريخ الدولة الفاطمية في مصر أن نسبة الأئمة كانت دائما محل بحث ، فعندما دخل قادة وعلماء مصر على المعز لدين الله ، سألوه عن نسبه ، فجرد حسامه وقال : هذا نسبى ، ونثر عليهم قطع الذهب ، وقال هذا حسبى .

وصاحب قيام الدولة الفاطمية عصر الخفاء ، بنزعة استكشاف الغيب واحياء عصر الخوارق ، ودراسة الفلسفة ، وقيام الفرق الدينية السرية ، مع التعلق بالمجهول وتهكم المصريين على إدعاء معرفة الغيب ، ويروى أن العزيز بالله

صعد المنبر ذات يوم ، فرأى رقعة كتب عليها :

بالظلم والجور قد رضينا

وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم الغيب

فقل لنا كاتب البطاقة

ويلاحظ هنا نجاح فقهاء المذهب الاسماعيلى فى تقديم تصور متكامل ، لكسب تأييد المستويات المختلفة من الأهالى ، فقدموا لأهل الورع والتقوى دعوة تقوم على تبجيل القرآن الكريم وأحكام الشريعة الإسلامية ، وقدموا لأهل الفكر والتأمل تفسيرا فلسفيا للكون ، استمدوه من مصادر القدماء ، وقدموا لأصحاب الأرواح الرقيقة والحس المرهف أفكارا عاطفية دافئة تغذيها العبرة المستمدة من آلام آل البيت ، وقدموا للمظلومين والمقهورين المتطلعين إلى العدل ، حركة معارضة سرية جيدة التنظيم ، تهدف إلى هدم القائم وإقامة مجتمع جديد يقوده الإمام ويملأ الدنيا عدلا بعد الجور والظلم ..

وشهد عالم الاسلام فى هذه المرحلة التاريخية ظاهرتين خطيرتين :

● **ظاهرة قيام تنظيمات سرية تقوم على الستر والكتمان** وانتشارها فى أرجاء عالم الاسلام ، وإذا كان للستر والكتمان هدف وهو الخشية على الإمام ، فإن السرية والكتمان لهما آلية خاصة ، ويمكن اختراق التنظيم السرى من إحدى حلقاته ، وتوجيهه بعيدا عن هدفه الأصلى ، وهو ما وقع بالفعل .

● **ظاهرة الانقسامات والعنف** ، خرج من الكتمان والسرية مذاهب مثيرة ، ويكفى أن نعرف أنه عند لحظة انتصار المعز لدين الله ، خرج عليه القرامطة ، فى شرق شبه الجزيرة العربية ، وانقلبوا عليه، ثم عادوا مرة أخرى بقوة السلاح إلى الولاء الفاطمى ، وفى ذروة عصر الخفاء فى أواخر عصر الحاكم بأمر الله ، حاول بعض الدعاة نشر أفكارهم التى تضفى على الحاكم قدسية خاصة ، وثار عليهم المصريون وفتكوا ببعضهم ، وفر البعض الآخر واستطاعوا أن يقيموا طائفة جديدة هى الدروز القائمة حتى اليوم فى كل من سوريا وفلسطين ولبنان ، وزعم بعض الغلاة منهم أن الحاكم قد رفع إلى السماء !

ونعود إلى المؤيد لدين الله وهو يلجأ إلى مصر متخفيا سنة ١٠٤٥ م – ٤٣٨ هـ ، ويروى أيام شدته قائلا : « رأيت أننى إذا بقيت مكانى ، لم آمن ما يتم على بغيتهم من حيلة

ومكيدة... وعملت على تنكير الزى والهيئة ، والدخول فى أطمار رثة ، وابتعت غلامين مجهولين ، وسلكت فى بعض المجاهل من الطرق ، أكترى من مرحلة الى مرحلة حمارا أركبه ، أو جملا أو ثورا على حسب ما يتفق ، وأتحمل مشقة المشى وخوض الأودية والوحول ، والصبر على مضض البرد والنزول على المواضع القذرة ما يكون الموت عن دائه شافيا ... وكنت أحل فى صوب الطريق بأقوام الريافة وأهل السواد ، فأسمعهم يذكروننى من القبيح بما أعلم أنهم لو شعروا بى لكانوا يتطهرون بدمى ويصلون ... وبعد مقاسات الأهوال التى رأيتها عيانا .. بلغت بشق النفس الباب الطاهر - باب الامام مترجحا بين أمل ويأس ، أما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ، ووجه نهار تبرقع بالسحاب - ويقصد أن الحكم لم يكن فى يد إمامه المستنصر إنما فى يد أمة ورجالها » ، ويعكس حديثه مع التسترى حالته النفسية وخيبة أمله .. يقول : « أعلم ، أنه ما مجتنى ديارى من فمها الا تكشفا بخدمة هذه الدولة العلوية ، وتخوفا من الجهة العباسية ، وتسللا من فتنة كاد شرها يهلكنى . فما الداعى الى قصدى هذا غير داعى الايمان ، وما المقصود الا صاحب القصر الذى هو امام الزمان ، فان كان المقصود - الخليفة - يعلم أننى أنا الرجل الذى فيه أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، وهو يأنف من لقائه بلحظه ، ومن خطابه بما يشرح الصدر بلفظه » ..

وتكشف كلماته أنه لم يستقبل كما يتوقع ، ووجد الامام ومن حوله عنه لاهين .

● المؤيد وناصر خسرو

ونلاحظ أنه وصف لقاءه الأول بكل تبجيل واحترام مع قصر الامام ، فقال : « أدخلوني من القاهرة المعزية الى قصر الخلافة .. ولمحت الثريا ترابا تحت قدمي ، اذ ترشفت ذاك التراب ، واجلسوني هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التي ملأت جوانحي لما غشيت الحسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبي وجوارحي » ..

وهو هنا يسيطر على جوانحه الموقف المذهبي ، ولا يقدم لنا وصفا لقاهرة تلك الأيام ، والتي كانت جليلة شامخة ، والتي يصفها ناصر خسرو في تاريخ قريب سنة ١٠٤٩م - ٤٤١ هـ ، ويذكر عن ذات القصر : « كان القصر وسط القاهرة ، بينه وبين الأبنية المحيطة فضاء ، يحرسه في الليل خمسمائة حارس من الفرسان ، وخمسمائة حارس من الرجالة ، أسواره عالية ، لا يستطيع أحد رؤية ما بداخله ، وقيل أن عدد من يقيمون بالقصر ٣٠ ألفا من بينهم ١٢ ألف خادم ، وللقصر عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا ليصل الى قصره الآخر ..

ويوجد بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان كلها ملك السلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير في الشهر ، وفيها من الخانات والحمامات ما لا يمكن حصره ، وهي جميعها ملك للسلطان، وفى القاهرة والفسطاط عشرون ألف منزل يملكها ويؤجرها السلطان ... والقاهرة خمسة أبواب ، هي باب النصر وباب زويلة وباب الفتوح وباب القنطرة وباب الخليج ، والبيوت مبنية بناء نظيفا محكما ، ومفصولة عن بعضها بالحدائق التى ترويها الآبار ، ويؤخذ ماء الشرب من النيل يحمله السقاء ون على جمال يبلغ عددها ٥٢ ألفا ، ويحمل الرجال القرب حيث سيتعذر على الجمال دخولها ، وفى الفسطاط بيوت من أربعة عشر طابقا ، وبعضها من سبعة طوابق ، وثمة رجل أنشأ حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار ...

ويصف فى موضع آخر موكب المستنصر بقوله : « أنه شاب لطيف المحيا حليق الذقن يرتدى فى بساطة قفطانا أبيض وعمامة ، وعلى رأسه مظلة مرصعة بالجواهر الثمينة ، واللائى يحملها كبير الموظفين ، ويتحدث عما شاهده فى مصر من ثروات وأموال ، قائلا « أنه يخشى ألا يصدقه أحد من بلاد العجم إذا حاول وصفها » ..

وكان لابد أن تبعث القاهرة الرهبة فى نفس المؤيد وهو يزورها لأول مرة .

ولم يجذبه وصف القاهرة وحياة أهلها ، بل جذبه وهو الداعى الفاطمى الفارق الكبير بين الدولة الحلم التى يحلم بها المضطهدون والمقهورون وبين الواقع من حوله الذى يتحكم فيه الهوى والطموح الشخصى .

ويلحظ موقف المصريين من الحكام ... « وعاداتهم فى الاستخفاف بملوكهم معروفة ، أما الوزراء فهم أغنام عندهم للنزع معلوفة .. » ويتكشف له حقيقة ما يدور ، فأم المستنصر كانت جارية مملوكة لأبى سعد التسترى التاجر اليهودى ، قبل أن تنتقل للخليفة الظاهر ، وعندما أصبح أبنها خليفة أستعانت بسيدها القديم ، واتخذت منه وزيرا لعله يساعدها على السيطرة على الدولة مع صغر سن وليدها ، كما تولى الوزارة يوسف الفلاحى (١٠٤٤ م – ٤٣٦ هـ) ، وهو ايضا يهودى اسلم ، يقول عنه المؤيد بعد أول لـقــاء : « رأيت شيخا عليه من الوقــار سعة ، ومن الانســانية سمة ، فأدنى وقرب وأكرم ورحب .. » .

ويسجل انا التاريخ تولية ثلاثة وزراء من اليهود فى العصر الفاطمى ، أشهرهم يعقوب بن كلسى ، وثانيهم صدقة بن يوسف الفلاحى ، الذى كان من يهود حلب ، أما الثالث فهو الحسن بن أبى سعد التسترى ، الذى لم يستمر فى الوزارة أكثر من عشرة أيام ..

وقد عبر الرأى العام فى مصر عن هذه الظاهرة على لسان الشاعر ابن ميسرة بقوله :

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهموا
ومنهم المستشار والملك
ياأهل مصر أنى نصحت لكم
تهودوا قد تهود الفلك

فكيف عبر المؤيد لدين الله عن هذه الأحداث ، وهو الفاطمى المتحمس .. ؟!

يروى فى سيرته الذاتية : « قيل أن هنا يهوديا يكنى أبا سعد التسترى ، كان تاجرا ومولى أم المستنصر ، أصبح هو المتصرف فى شئون البلاد ، وأصبح الوزير الفلاحى يأتمر بأمره ، وهو لأمور المملكة كلها الأساس والمبنى ، توجهت اليه ، فرأيت منه اهتزازا لرؤيتى ، وخرجت من عنده بثياب ودنانير خرجت لى من خزانة السلطان ... وعندما توجهت الى الموسوم بالقضاء والدعوة ونحن بالبعد ، والواسطة بيننا وبين مجلس الامامة ، فرأيته رجلا يصول بلسان نسبه فى الصناعة التى

وسم بها دون لسان سببه ، فارغا مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته ، وموتور منى بما أوحى اليه بعض شياطين الانس من أننى ربما زاحمته فى مكانته ، وتذكرت قوله تعالى : « انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم » - يقصد أم المستنصر - وكان اليهودى - التسترى - يلقانى بنشر وجهه ، ويخاطبنى بكل خير لسانه ، ويعدنى أن يصطنعنى لسانه ، ويجعلنى خدمه ومصاحبه ومكانته ، ويمنعنى ان أتعقب باب أحد من المصطنعة والاكابر ، فيكون ذلك وكسا علىّ فيما يريدنى له ، ويشوقنى اليه من المنزلة الجليلة ، فلما استفاض من الذكر من جهته، وملأ الاسماع من لفظه ، قامت الحسدة من الشياطين المردة، فدخلوا فى عقل اليهودى ، وقالوا : كيف تطوع لك نفسك ان تأخذ بهذا الرجل العجمى الدخيل الى المقام الذى أنت مخصوص به ومرتب له ، وما يؤمنك أنك اذا ادخلته أخرجك ، وإذا قدمته اخّرك ، وهو ابسط منك لسانا، واقوى جنانا ، وهو يدلى بعزة الاسلام ، والتخصيص بالدعوة والخدمة ، وفيك من العلامات كلها خمول اليهودية ، ولم يزل الحديث يتوارد على سمعه حتى تشربه قلبه » ..

ويصف متاعبه ومعاناته مع بلاط خليفته وامامه . يقول : ولا خير فى المقام عند باب من يكون محجورا عليه ، ويكون مقاليد أموره بيدى غيره لا بيديه .

« وعندما سمع اليهودى القول ، وأننى كشفت من الأمور مستورا، هاج كما يهيج الجمل نفورا ، ثم لم يزل دأبى ودأبه المماحكة والمعاركة والاحراق به فى مجالسه ومواكبه ، .. حتى اتفق من قتله.. وقالوا ان الفلاحى دس من قتله .. وان بعض الجهات الجليلة التى كان اليهودى مرتسما بخدمتها فى الظاهر، وان كان مستوليا على المملكة كلها في الباطن .. فلما تجلت الظلمة اليهودية، مددت باع طلبى لملاقاة السلطان ..» .

● لقاء الإمام

واخيرا دخل مجلس الخلافة فى آخر يوم من شعبان ٤٢٩ هـ

وبعد أن رأى عجز الإمام ، ولمس سيطرة مؤامرات القصور التى كاد يذهب ضحيتها ، وشاهد الفارق بين الحلم والواقع ، وسجل كل ذلك بشجاعة المؤرخ لا تحيز صاحب المذهب ، وعند اللقاء يعود ويسيطر عليه الموقف المذهبى ، وينسى عند وصفه لهذا اللقاء كل متاعبه ، يقول : « لم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة ، وغلبتنى العبرة ، واجتهدت عند وقوعى الى الأرض ساجدا (!) لولى السجود ومستحقه ،.. ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت على أثوابى العقود ، رأيت بنانا يشير إلىّ بالقيام ، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول .. وهو يقول .. دعوه حتى يهدأ

ويستأنس ، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدرى وودعت وخرجت » ..

ويعود المؤيد ويلعب دورا نشطا فى الدعوة ، ويصبح طرفا هاما فى صراع جديد بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، ويقوم بمهمة دقيقة فى شمال الشام والعراق ، مكلفا بالتأثير على الأمراء الذين استقلوا بإماراتهم فى ظل ضعف الخلافة العباسية فى بغداد والتهديد السلجوقى ، وبعد دخول طغرلبك التركمانى مدينة الرى سنة ٤٤٦ هـ ، وتأرجح الأمراء بين القاهرة وبغداد ، ويسافر المؤيد الى الشام وسلاحه ليس السيف بل القلم ، وأداته الكلمات والعطايا ، ونجحت رسائله فى إقامة تحالف ضد التركمان فى سنجار بين أرسلان التركى المعروف باسم البساسيرى وبنى مزيد فى الحلة ، وبنى مرداس فى حلب ، وقريش بن بدران صاحب الموصل ، ونجح البساسيرى فى دخول بغداد يوم الأحد الثامن من ذى القعدة سنة ١٠٥٨ م - ٤٥٠ هـ . وهو يحمل الرايات البيض المصرية وعلى رأسها أعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم أمير المؤمنين وخطب له فى مساجد بغداد ، وضرب السكة الذهب والفضة باسمه ، وأرسل البساسيرى الى الخليفة المستنصر فى القاهرة بثياب الخليفة العباسى وعمامته ، فارتجت مصر ، وأقيمت الاحتفالات ، وخطب باسم الخليفة الفاطمى فى الموصل والبصرة وواسط » ..

وتكشف هذه الأحداث التاريخية ، أن الصراع الداخلى بين أطراف الأمة الواحدة ، ظاهرة قديمة ، وإذا كان مفهوما بعض جوانب الصراع المذهبى ، فغير المقبول ، أن يكون الصراع الأساسى بين أطراف يتعرض كل منهم لتهديد عدو واحد ، وكما رأينا أن الصراع اشتد بين الرؤساء وليس ضد التهديد الخارجى وربما تحقق الحركات السرية بعض النجاح فى صفوف المعارضة ، ولكنها تواجه الفشل عندما تصل الى الحكم .

فسرعان ما تحول الانتصار الذى أنجزه المؤيد الى سراب، وعاد السلاجقة للاستيلاء على هذه المناطق .

● الشدة المستنصرية

ولكى يوضع الصراع الذى شارك فيه المؤيد فى سياقه التاريخى ، نتعرف على أبعاده ، ونعود الى الحكم الفاطمى فى القاهرة .

حكم المستنصر بالله فترة تزيد عن ستين عاما ، ووصلت الدولة الفاطمية فى عصره الى أعلى ذراها ، ثم تهاوت الى الانحلال السريع ، وقدم لنا المؤيد فى سيرته الظروف والحيثيات ، ومؤشرات هذا الانحلال ، بما ألقى عليه الضوء مما أطلق عليه « الظلمة اليهودية » وعرض مؤامرات البلاط وعجز السلطان ، وكان من نتائج ذلك ما عرف بالشدة

المستنصرية الكبرى ١٠٦٣ م – ٤٥٧ هـ ، ومن جانب آخر أدت الى مزيد من تشرذم المذهب الاسماعيلى ، عندما تضافر القحط مع اختلال الأمن ، وتقدم رجال السيف وتراجع رجال القلم ..

مما أدى فى النهاية الى انقسامات عميقة تناولت الأسس الفكرية للمذهب الاسماعيلى ، فعقب وفاة المستنصر ، اختار الأفضل بن بدر الجمالى الابن الأصغر للخليفة المستعلى خليفة وإماما ، بدلا من نزار الابن الأكبر الأحق بالامامة على ما يقتضيه المذهب الاسماعيلى ، وانشق المذهب الى قسمين ، واستمرت جيوب القسمين قائمة حتى اليوم .

وكان من أول نتائج هذا الانشقاق ، خروج حسن الصباح من القاهرة ، والذى كان يرى أحقية نزار بالامامة والذى قتل ، ويؤسس فرقة الحشاشين فى فارس ، ويقيم الحصون ، ويبنى قلعة الموت ، ويقوم مذهبه على الولاء والطاعة المطلقة ، وامتزجت طبيعة المنطقة الجبلية النائية بأفكار المذهب الاسماعيلى ، وبالأفكار والعقائد السائدة بين الفلاحين وسكان الجبال ، وتحول تنظيمه الى أداة فعالة فى يد المعارضة السرية ، وكانوا أول من حقق أهدافهم السياسية عن طريق اشاعة الفوضى وتقويض أركان الكيانات السياسية القائمة ، واعتمدوا على الاغتيال السياسى كأداة أولى للوصول الى أهدافهم ، واقترن لفظ « الحشاشين » فى اللغات الأوربية

بمعنى الاغتيال وقامت حركة سرية لها قسمها وشعائرها، وكانوا الارهابيين الأول الذين طوعوا الارهاب لتحقيق أهدافهم السياسية .

ومازالت بقاياهم قائمة حتى اليوم فى سوريا وفى الهند ، ويمثلهم اتباع أغاخان ، وقامت بينهم سلسلة من الأئمة وصلت فى القرن التاسع عشر الى أسرة أغاخان ، ووصل هذا الأمر الى المحاكم البريطانية فى الهند عام ١٨٦٦ ، والتى كان عليها أن تبحث الحجج وتدرس الأنساب لتحكم فى أحقية أغاخان فى زعامة الطائفة .

● البهرة ومسجد الحاكم

ويمثل أتباع البهرة ما تبقى من القائلين بامامة المستعلى ، وكان المذهب قد انتقل الى اليمن على أيدى ملك بن مالك قاضى الصليحيين ، والذى سبق وذكرنا أنه تتلمذ على المؤيد لدين الله مدة خمس سنوات ، فبعد قضاء صلاح الدين الأيوبى على الخلافة الفاطمية فى مصر ، غادر فلول الاسماعيليين البلاد ورحلوا الى اليمن ثم انتقل المذهب عن طريق التجارة بين اليمن والهند ، وقام المذهب فى ولاية جوجرات جنوب بومباى، وأطلق عليهم لفظ «البهرة» وهى كلمة هندية قديمة تعنى التاجر ، وانتقل رأس الدعوة من اليمن الى الهند فى القرن العاشر الهجرى . ومن نسله حتى اليوم أتباع هذا المذهب ،

ويعرفون بملابسهم المميزة ولحاهم الطويلة ، ونسائهم المنقبات، وظهر البهرة فى مصر من جديد بعد مايزيد على ثمانمائة عام من خروجهم منها ، عندما قاموا باهداء المقصورة الفضية لضريح سيدنا الحسين ، وتجديد جامع الحاكم بأمر الله الذى يعتبر لديهم من أكثر الأماكن قداسة ، وهم لا يؤدون فريضة الصلاة سوى فى « الجامع خانة » ، ويرفضون إقامة الصلاة فى غير مساجدهم، وأقام أصحاب هذا المذهب فى مدينة سورات فى الهند « الجامعة السينية ، لتعليم اللغة العربية والمذهب الاسماعيلى » .

ولدى دعاة البهرة شطر كبير من مؤلفات الاسماعيلية التى وضعت فى مصر الفاطمية ، بينما فقد عدد كبير منها من مصر ، وكلما ظهر لهم كتاب جديد ، أثار من جديد قضية الملل والنحل فى الاسلام .

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع المذهب الاسماعيلى وانشقاقاته ، وما تبقى منه حتى اليوم ، والذى كانت سيرة المؤيد لدين الله بمثابة الجزء الظاهر من جبل الجليد المختفى تحت الماء ، نعود لنصاحب المؤيد فى عودته إلى القاهرة ونتعرف على ماجرى له بعد انتصاره الكبير فى العراق والشام .

وندعه يتم قصته .. يقول .. « سرت الى مدينة صور ، فلما حصلت موضعا يسمى البواقير ، لقينى صاحب بسجل يؤكد

علىّ فى النكوص على عقبى الى حلب ، فملكنى التحير والدهش ، ووجدت الرجــوع ممتنعا ، والوفــادة على البـــاب (الخليفة) بعد تحريمها خطة شديدة ، ورجحت بين الأمرين ، فرأيت أن الاتمام خير من الرجوع ، وأن الذى اقتضى انشاء ذلك السجل ، هو تلفيق من بعض المفسدين ، أو ظن ظان أننى إذا دخلت تعرضت بوزارة ، أو زاحمت أحدا فى رتبته ، وقلت ياسبحان الله بما يستحق من كان هدفا لسيوف التركمانية وسهامهم . وأقام لديهم سنة جرداء يعاين فيها كل ساعة حتفه.. أن يكون جزاؤه المنع من العودة الى الباب ، فرأيت أن أنكب عن الطريق الجادة الى البرية والمجاهل فما شعروا بى حتى أطلعت رأسى بالجب – جب عميزة – عند باب القاهرة . ودخلت ، دخول المهزوم لا الهازم ، والمكسور لا الكاسر » .

ثم يتولى منصب داعى الدعاة ، وداعى الدعاة من مفردات الدولة الفاطمية منصب يلى قاضى القضاة ، كان يتزيا بزى خاص، وينوب عن القاضى ، ويتناول راتبا قيمته مائة دينار مثل قاضى القضاة .

وكان عالما بجميع مذاهب أهل البيت ، يأخذ العهد على الأتباع ويحضر إليه فقهاء فى دار الحكم .

ويحفظ لنا تاريخ الادب العربى رسائل متبادلة بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة الشيرازى وهى رسائل تدور بين

المثقف الرسمى وبين المثقف الحــر الطليق ، يسعى فيها المؤيد إلى أن يصطف كبـــار المفكرين وراء المعتقدات الرئيسية للدولة .

وكان لهذه الرسائل دوى كبير ، وقد أعيد نشرها فى مجلة المقتطف فى يونيو ١٩٣٠ . والتى يقـول فى إحداها أبو العلاء :

علم الإمامة -ولا أقول بظنه - .. أن الدعاة بسعيها تتكسب

وقصده حين قال :

ضاع دين الداعى فرحت ترو

م الدين عن القسيس والشماس

ويكتب داعى الدعاة المفكر الرسمى للدولة ، ساخرا ومتعاليا .. « أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفيا فاشفنى ..

ويرد المعرى .. « أنه لو مثل فى حضرة « داعى الدعاة » لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب ، لأن أعضاءه متخاذلة وقد عجز عن الصلاة قائما وانما يصلى قاعداً وإنى لأعجز إن إضطجعت عن القعود ، فربما إستعنت بانسان فإذا هم باعانتى وبسط يديه لينهضنى إضطربت عظامى لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن فعرتهن منها الأوقات المتمادية ، وإنما عنيت كان عليهن من لحم ..

ويضيف هازئا .. « ومن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز فإنما مثله مثل من طلب فى القتادة ثمر النخل ، وإنما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع.. وهو بكتابه إلىّ تواضع ، ومن أنا حتى يكتب مثله لمثلى، مثله فى ذلك مثل الثريا كتب إلى الثرى »

ويتجنب المؤيد القضايا الفكرية ويحاوره حول سر إمتناعه عن أكل اللحم ، وعن كثرة إستعمال السجع فى أدبه ..

* * *

وتطوى صفحة حياة المؤيد سنة ٤٧٠ هـ ، ويلقى أكبر صور التكريم من الخليفة ، ويدفن فى دار العلم بالقاهرة ، ويصلى عليه إمامه المستنصر بالله .

٣

اعترافات الإمام الغزالى

ورحلته من الشك إلى الايمان ..

(٤٥٠ هـ - ٥٠٢ هـ)

هذه سيرة ذاتية من نوع خاص ..

تحكى قصة مفكر كبير يبحث عن اليقين ، ويرفض التقليد ، يغوص فى كل معارف عصره، ويدرس كل ما خطه الفلاسفة والفقهاء ويتوه فى بحر بلا شطآن ، وتضطرب به الأمواج يبحث عن الضياء وسط ظلمة الشك الحالكة ، ويقدم تجربته العقلية وتطوره الفكرى ، بعد أن خاض العديد من المخاطر الفكرية والروحية .

ولد ابو حامد الغزالى منتصف القرن الخامس الهجرى سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م فى مدينة طوس ثانى مدن خراسان ، والتى بها قبر الإمام الرضا وقبر هارون الرشيد ، ودمر المدينة جحافل المغول سنة ٦١٧ هـ ، وبقيت قبور الغزالى والإمام والخليفة ، ونشأ حولها مدينة مشهد المعاصرة .

ولم يعرف عن والدته سوى انها توفيت وهو مازال طفلا ، وروى ابن النجار أن والد أبى حامد كان يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه ، وأوصى بولديه محمد وأحمد إلى صديق له صوفى صالح ، فعلمهما الخط ، وفنى ما خلف لهما ابوهما وتعذر عليهما القوت ، فقال : أرى لكما أن تلجآ الى المدرسة ، وكأنكما طالبان للفقه ، عسى يحصل لكما قوت ..

وبدأت بذلك رحلة تعليمه ، فدرس الفقه وعلم الكلام ، ويذكر السبكى فى « طبقات الشافعية » حكاية زادته التصاقا بالعلم وحرصا على تحصيله يقول : « سافر الغزالى الى جرجان الى الامام ابى نصر الاسماعيلى » ، ويروى الغزالى « قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم فالتفت الىّ مقدمهم وقال .. ارجع ويحك وإلا هلكت .. فقلت له: أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد علىّ تعليقتى ، فما هى بشىء تنتفعون به. فقال : وما هى تعليقتك .. ؟ فقلت .. كتب فى تلك المخلاة هجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك ساخرا وقال .. كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد

أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ وسلم الىّ المخلاة » .

ويعلق الغزالى على القصة قائلا « هذا منطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس ، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع علىّ لم أتجرد من علمى » ..

وتقول ترجمته فى كتاب نفحات الأندلس لعبد الرحمن الجاص المتوفى سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م « اجتمع بنظام الحكم وحصل له قبول تام ، فمن كان فى صحبة نظام الملك من العلماء والفضلاء باحثوه وناظروه ، فغلب عليهم ، ففوضوا اليه تدريس النظامية ببغداد » .

ويضيف الصفدى .. « قصد مصر ، واقام بالاسكندرية مدة، ويقال إنه عزم فيها على ركوب البحر للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش ، فبلغه نعيه وعاد الى طوس » ..

ويذكر عنه ابن كثير فى البداية والنهاية « .. برع الغزالى فى علوم كثيرة ، وله مصنفات منتشرة فى فنون متعددة ، وكان من أذكياء العالم فى كل ما يتكلم به ، وساد فى شبيبته حتى أنه درس بالنظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وله من العمر اربع وثلاثون سنة ».

أما أبو الفــرج عبد الرحمن الجوزى فى كتابه المنتظم ، فيقـول .. « ترك التدريس والرياسة ولبس الخام الغليظ ولازم الصوم ، وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ » ..

ووصلت قيمته أن اتفق العلماء - فى الاثر - على أن مجدد المائة الأولى للاسلام هو عمر بن عبد العزيز والمائة الثانية الإمام الشافعى والثالثة الامام الاشعرى والرابعة الباقلانى ، والخامسة حجة الاسلام الغزالى ..

أما رحلة الإمام أبى حامد الغزالى وســيرته الذاتية فى كتـابه « المنقذ من الضلال » وفى رحلته تلك ، احتمل مالا يحتمله سواه ، وأظهر مكنون ذاته ، وسطر ما تخفى نفسه ، وما يختلج فى قلبه ، وهو العالم لكل فن ، والسابح فى كل بحر، وولج غير هياب ولا وجل بحار الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة .

وفى مغامرته ترك التدريس والجاه والصيت ، وفر بنفسه من بغداد عاصمة الخلافة ، واعتزل بالشام ، واختفى بصخرة بيت المقدس ، وأغلق على نفسه منارة دمشق ، وحج الى الأراضى المقدسة وأخرج كتابه الهام « إحياء علوم الدين » ..

وتوصل بعد هذه الرحلة الى أن الاسلام دين المنطق السليم والعقل الحر ، لا دين الرؤيا والأحلام والأوهام .

يأتى صوته صافيا من أعماق الماضى بعد تسعة وعشرين عاما على الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ، فيخاطب هذا العصر الذى غاب فيه اليقين .

ويمكن القول إن اهم ما قدمه الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » ما يشبه نظرية فى المعرفة ، يصل خلالها الى أنه من الممكن بفضل المنهج الصحيح رفع الخلاف بين الخلق إذا اتبعوا المنهج الذى يرسم فى معرفة الحق ، ونقده لمناهج المعرفة القائمة فى عصره ، ويؤكد أنه « فى مقدمة المقاصد لا يقف على فساد علم من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلم الناس » ..

وسلك طريقا جديدا للوصول الى الحقيقة فليس بالعقل وحده يصل الإنسان الى اليقين ، فيمكن أن تلعب الأهواء والأغراض بالعقل وليس بالحواس وحدها ..

والوصول الى الحقيقة يحتاج الى مجاهدة النفس والتجرد عن الهوى والمصالح الخاصة ، ويؤمن أن الذوق يلعب دورا فى القدرة على الخروج من الحيرة والضياع ، وهو يعنى الحدس بتعبير هذه الأيام ، أى الخبرة التى تعطى القدرة على الحكم .

وخبرة الحياة وخصوبتها تلقيان الضوء على رؤية الغزالى ، عندما يلاحظ المتأمل أنه عند المسائل الحيوية والاختيارات الحاسمة فى حياة الفرد ، لا يكتفى بالعقل ولا بالحساب البارد حتى يأخذ قراره ويستقر رأيه ، وانما يتم الاختيار بما هو

أبعد من العقل ، فاذا كان بالعقل وحده يتم اختيار أى وسائل المواصلات أنسب ، أو أفضل الطرق لتنظيم عمله ، إلا أنه يحتاج إلى ما هو أبعد ، وهو يحدد مهنته أو شريكة حياته ، أو هل يقيم فى مسقط رأسه أو يهاجر الى أرض جديدة .

وجاء العصر الحديث بمذهب « المتأملين » الذين يتبعون التأمل كطريق للوصول الى الراحة والايمان تأكيداً لما نادى به الامام الغزالى .

● أزمــة حــادة :

يبدأ الغزالى قصته « بأن بعض اخوانه سأله أن يشرح كيف ارتفع عن حضيض التقليد الى قمم الاستبصار وتحصيل العلم اليقينى ، فاختلاف الخلق فى الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق ، غرق فيه الاكثرون وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى . وأنه منذ شبابه إلى أن اناف على الخمسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض اغواره واعماقه خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور » ..

ويستعرض ازمته الحادة التى كادت تعصف به بقوله « اقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت ان طريقتهم لا تتم الا بعلم وعمل، أما العلم فكان أيسر من العمل ، أما العمل فاخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه إلا بالذوق والحال

وتبدل الصفات فهم يقينا أرباب احوال ورأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى .. ولا يتم ذلك إلا باعرافها عن الجاه والمال ، والهـروب من الشواغل والعلائق ..

فهاهو بعد أن وصل الى الصيت و الجاه ، واصبح أستاذا مرموقا فى المدرسة النظامية ببغداد .. وجد نفسه قد اقبل على تدريس علوم غير مهمة ، وغير نافعة ، وغير خالصة لوجه الله ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت .. وجميع ما أنت فيه رياء وتخييل ، ويراوده الشيطان هذه حالة عارضة ، وحذار من مطاوعتها ، فهى سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى فى منازعة الخصوم .

وعاش طويلا هذه الحيرة حتى « .. جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار فعقل لسانى ، حتى اعتقل فى التدريس فكنت اجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا ، تطييبا للقلوب المختلفة الىّ ، ولكن لسانى كان لا ينطلق بكلمة .. لا أستطيع البته ، وزاد الأمر أن أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطل معه قوة الهضم ، ورغبة الطعام والشراب .. فكان لا تنساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ،

فضعفت القوى ، وقطع الاطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا .. هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه إلا بالعلاج ، إلا بان يتروح السر عن الهم الملم .

ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال » ..

وإذا كان الغزالى قد ترك التدريس فى اكبر معاهد العلم فى عصره ، وتخلى عما حققه من نجاح ، وخرج تاركا الأهل ، والولد والصحاب ، فقد فعل ذلك تحت الحاح عاطفة لا تقاوم من شوق الروح الى اليقين والسكينة والاطمئنان الى حياة وأعمال خالصة من شوائب الحياة وأهوائها .

ويروى الغزالى لابى بكر محمد بن العربى مراده من رحلته بقوله « وان القلب اذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس وتجرد للمعقول انكشفت له الحقائق .. فالقلب جوهر صقيل مستعد لتجلى المعلومات فيه عند مقابلتها عريا عن الحجب كالمرآة فى رؤية المحسوسات عند زوال الحجب » ..

وبدأت رحلته الى الايمـان والتى دامت عشر سنوات أو تزيد .

● **مع الغزالى فى رحلته ..**

ولنسر مع الغزالى فى رحلته خطوة خطوة ..

يتهم البعض الغزالى ، انه قلل من شأن العقل ، وهذا ليس صحيحا ، فالعقل عنده هو « ميزان الله فى أرضه ، ولكن .. « يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق ، فما من احد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله ، وأشدهم حماقة ، وأضعفهم عقلا هو افرحهم بكمال عقله » ..

وإذا كان العقل هو اداة المعرفة ، فإن الحواس تشوش عليه ، مما دعاه الى نقد المعرفة الحسية عندما يشوش الوهم على وظيفة العقل ، وعلى طالب الحقيقة أن يحارب الوهم ، حتى يستطيع تصور الأمور المجردة والحقائق غير المحسوسة .

فالمعرفة أما أن تكون بالمحسوسات واما أن تكون بالعقليات، والمعرفة بالمحسوسات لا أمان لها ، لأنك .. « تنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم تدل الادلة انه اكبر من الأرض ، بمقدار » .. وايضا المعرفة بالعقل وحده لا يقين فيها ولا ثقة ، لانه يمكن ان تطرأ على الانسان حالة .. تكون نسبتها الى العقل كنسبة اليقظة الى النوم ، وكثيرا ما يكذب العقل الاحساس ، وينكر الاحساس العقل .

فإذا كان العقل قادرا على معرفة كثير من الأمور ، مثل الاستدلال على وجود الصانع ، وعلى حدوث العالم ، فإن هناك أمورا ليس للعقل سبيل الى القطع بها ، مثل البعث والثواب والعقاب ..

ومع تسليم الغزالى بقيمة العقل ، إلا أنه يميز بين ميدان العقل وميدان الدين ، فيقسم العلم فى كتابه الاحياء .. الى علوم شرعية تستفاد من الانبياء ، وعلوم غير شرعية ترشد اليها العقول والتجارب كالرياضة والطب ..

ويؤكد على الفصل بين الذاتى والموضوعى « لا يعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف اهله » ، ويشترط الاستقلال .. « لا خلاص إلا فى الاستقلال ، فالعقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء ، عن جميع المعضلات » ..

● **الغزالى وديكارت ..**

ويختار الغزالى « الشك » كدرب الى اليقين ، وهى فكرة قديمة عرفت عند السفسطائيين ، ما أكثر الشبه بين تجربة الفيلسوف الفرنسي ديكارت « ١٥٩٦ - ١٦٥٠ » وتجربة الغزالى .. ونقرأ ما خطه الغزالى .. « الشكوك هى الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمىُ والضلال » .

ويعرف فى كتابه المنقذ من الضلال معيار العلم ، وفى تعريفه بالعلم اليقينى وبيانه لشروط اليقين يسبق ديكارت .

فقد لاحظ ديكارت - فى كتابه نقد العقل المحض - انه تلقى مجموعة من المسلمات الخاطئة وشك فى معارفه جميعا ، حسية كانت أم عقلية ، فانتظر حتى بلغ النضج ، وحرر نفسه

من الأهواء والافكار والمشاغل ، وعكف على هدم أفكاره القديمة ، ووجد شيئا لا يقبل الشك ، وهو حقيقة كونه يشك ، ووجد فى البداية أن معارفه تأتى عن طريق الحواس واكتشف أن الحواس يمكن أن تكون خادعة ، واستخدم ذات الحجج التى استخدمها الغزالى بشأن الأحلام واليقظة ، يذكر « انى أرى فى أحلامى ما اعتقد انه الحقيقة ، وعند يقظتى أجدها وهما » ويصل إلى ضرورة الافتراض التخمينى لكى يصل الى العلم اليقينى .. « ومادمت أقوم بهذا الافتراض فأنا موجود ، وكائن ، ومادمت موجودا فأنا أفكر فى اشياء لا تعرف سوى بالفكر وحده - لا لأنها ترى وتلمس ولكن لأنها تفهم وتدرك ، إذن فجميع الاشياء تدرك بالفكر لا بالحواس » وقدم ديكارت نظرية الشك كنظرية متماسكة الحلقات ..

أما الإمام الغزالى فميزان الحكم لديه ، هو الدين ، فالله قد اعطانا عقولا ، وأودع فى نفوسنا تفكيرا منطقيا ، وطريقة للفهم وأسلوبا للبحث والاستقصاء .

ويذكر فى المنقذ من الضلال .. « النفس الانسانية تكون فى اول امرها خالية من كل معرفة ، ثم يدرك الانسان بوسائل الادراك وكل إدراك يطلعه على نوع من الموجودات وأول ما يحصل للطفل ادراك الحواس ، حتى إذا نما الطفل ظهر فيه التمييز ، الذى يساعده على إدراك أشياء أعلى من

المحسوسات ، ثم يترقى الى دور العقل ، فيدرك الاحكام العقلية ..

ووراء العقل طور أعمق تتفتح فيه معرفة الغيب ، وما سيكون فى المستقبل ، وأمور أخرى ، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لرفضها ، فكذلك بعض العقلاء، أنكروا النبوة ، وذلك عين الجهل ، إذا لا مستند لهم ألا أنه طور لم يبلغوه ويظنون أنه غير موجود ..

وبرهانه على صحة ما نطق عليه « الحدس » وجود معارف عند الانسان لا يمكن أن تتم إلا بهذا النوع من الادراك ، مثل الطب والفلك .. فمن يبحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى .. ولا سبيل اليها إلا بالتجربة .. فمن الأحكام النجومية مالا يقع إلا كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة .. وفى الامكان وجود طريق لادراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل » .

وتتتابع أمثلته .

لو قيل لأحد .. « هل يجوز ان يكون فى الدنيا شىء ، هو بمقدار حبة يوضع فى بلدة ، فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه ، فلا يبقى من البلدة ومافيها ، ولا يبقى هو نفسه ،

لقال: هذا محال وهو من الخرافات ، وهذه حالة النار ينكرها من لم ير النار اذا سمعها .

ويصف درب الايمان بقوله « وهذه الحالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق فيتقنها بالتجربة ، والتسامع ، أن اكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان ، ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان .. والتحقيق بالبرهان علم، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان »

● تهافت الفلاسفة

رأينا ان اعتكاف الغزالى كان دافعه ذلك الصراع بين ايمانه وشكه ، وهى القصة الواقعية لمعركة عقل بحثا عن الحقيقة ، وقبل وصوله الى نظريته فى المعرفة درس ما تناولته المدارس الفكرية المختلفة فى عصره ، وخاض بحار الفلسفة بحياد كامل ، وكتب مؤلفه مقاصد الفلاسفة ، شرح خلاله الأفكار الفلسفية القائمة ، وبعدها نقدها فى كتاب تهافت الفلاسفة ، وسلم بقيمة الرياضة التى توصلوا اليها ورفض استمرارها ، الى الكون والحياة .

وتجد فى القرآن الكريم العقائد موضوع بحث وسؤال وبيان وبرهان ، وألف العديد من مفكرى الاسلام مصنفات فى

العقل وحقيقته ، ومن بينهم الغزالى ، الذى يقف فى تاريخ الفكر الاسلامى عالما بالدين ومفكرا وناقدا للفلسفة وصاحب رأى متميز فى العلاقة بين الوحى ، والعقل ، ولعل ما قدمه فى هذا المجال هو سبب شهرته فى الغرب ، بعد أن ظهرت قدرته على التوفيق بين الدين والعقل .

وهناك رأى يدعى انه بكتابه تهافت الفلاسفة ، قضى على الفلسفة فى الشرق قضاء مبرما ، لم تقم لها بعده قائمة ، مع انه حارب فى كتابه ذلك الميتافيزيقيا الاغريقية التى لا تقوم على أدلة كافية ، وقد واجهها بسلاح المنطق والعقل ، وقد كان من آثار محاربة الغزالى للميتافيزيقيا الاغريقية تزايد الاهتمام بالعلم .

ويذكر الغزالى .. « شمرت عن ساعد الجد ، فى تحصيل ذلك العلم (الفلسفة) من الكتب بمجرد المطالعة ، ومن غير الاستعانة باستاذ ، فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، فأطلعنى الله بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلفة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين وظللت مواظبا على التفكير فى ذلك العلم بعد فهمه قريبا من سنة أخرى .. حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس .. وتحقيق وتخييل » ..

ويرى أن اقوالهم فيما يتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق من شىء بالأمور الدينية نفيا أو

اثباتا بل هى أمور برهانية لا سبيل الى مجاهدتها بعد فهمها ومعرفتها .

وبعدها ناقش الأمام الغزالى مذهب التعليمية ، فاليقين عند أهل هذا المذهب هو ما يقول به الامام المعصوم ، وهو مذهب باطنى شيعى ، ودارت هذه المناقشة عندما اصبحت بغداد هى العاصمة الفكرية ، يعيش فيها الخليفة العباسى ، أما السلاجقة ، فقد جعلوا عاصمتهم السياسية نيسابور ، وكانت تتلاطم فى بغداد أمواج جميع الحركات الاسلامية ، وكان بها لجميع المذاهب انصار ، وكان للوزير السلجوقى نظام الملك أثر فى حياته فهو الذى اختاره للتدريس فى المدرسة النظامية .

وكان التحدى الرئيسى للسلاطين السلاجقة يأتى من المذهب الاسماعيلى ، وقد لقى كل من نظام الملك ومن بعده فخر الملك مصرعه على أيدى اتباع هذا المذهب ، كما شهد هذا العصر ايضا انتعاش الحركة الصوفية بين العامة .

ويذكر الغزالى فى الرد عليهم .. « وكانت حينئذ قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحديهم بمعرفة الأمور ، من جهة الامام المعصوم ، القائم بالحق ، فَعَنّ لى أن أبحث عن مقالاتهم ، لأطلع على ما فى كتبهم » ..

فبعد أن درس كتبهم دراسة متأملة ، وقف عند قولهم بأنه لابد من معلم معصوم يعلم الأمة ، وقبل هذا القول ، على أن

المعلم المعصوم هو النبى صلى الله عليه وسلم ، لا الإمام كما تدعى الباطنية، كما رد على فكرة الغيبة التى يؤمنون بها ، وانتقد رفضهم للإجتهاد والاقتصار على النص المأثور عن أئمتهم ، وقال إننا نحكم بالنص عند وجوده ، فـإن لم يوجد إجتهدنا ، فالاجتهاد ضـرورى «النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، فلابد من الاجتهاد فى إرجاع الوقائع الخاصة إلى النصوص العامة » و « ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب العلم .. ولم يتعلموا منه شيئا » .

وهو يرفض الباطنية بعد أن رفض الفلاسفة والمتكلمين .

ويختار التصوف كموقف ومنهج للمعرفة ، ويقول فى المنقذ من الضلال .. « إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر علىّ من العمل ... وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها وبين أن يكون صحيحا شبعانا ، وبين أن يعرف حد

السكر وبين أن يكون سكرانأ ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه ، وهو سكران وما معه من علمه شيء والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء .. وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال » .

ويختم رحلته من الشك إلى اليقين بالقول .. « إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة .

ويختم كتابه بقوله : « نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه » .

٤

إعـــدام شـــاعر

عمارة بن أبى الحسن اليمنى

(٥٢٧ هـ)

هذه واقعة نادرة الحدوث على طول التاريخ المصرى ..

إنها واقعــة إعدام الشــاعر عمارة اليمنى فى القاهرة سنة ١١٧٣ م – ٥٦٩ هـ ، وتأتى غرابتها لما يتمتع به العالم والشاعر من مكــانة عالية فى مصر المحروسة ، التى يجنح مجتمعها لرفع شأنهما ، والتسامح معهما .

فما بالك ، وشاعرنا شاعر فحل وضيف على أهل مصر .. !
لقد قيل أيامها ، أن موته كان لاشتراكه فى مؤامرة لقلب نظام الحكم ، تعيد الدولة الفاطمية والفكر الشيعى إلى البلاد ، وأن لها علاقة بالغزاة من الفرنجة ، ولم يعدم لكونه شاعرا أو فقيها .. فهل لقى الشاعر حتفه لدوره فى المؤامرة ، أم بسبب ما يتغنى به من شعر ، وما يكتبه من نثر .. ؟

ولم يتركنا الشاعر عمارة اليمنى حيارى ، بعد أن ترك لنا سيرته الذاتية ، فى كتاب « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ، وسجل فيه مدى اضطراب عصره ، وتناول علاقاته برجال الحكم فى مصر ، الخلفاء والوزراء ، ونقل الحياة الثقافية والفكرية ، وأثبت قصائدَه فى مديح ورثاء الدولة الفاطمية ، وشكواه ومدحه لصلاح الدين ، بل وحتى مدحه للقاضى الفاضل الذى أصدر فيما بعد حكما بإدانته .

لقد كتب كل ذلك بعبارة سهلة جزلة واضحة صريحة ، وخاصة عندما قدم كتابه بقوله .. « فضل الله الإنسان بعقله ونطقه ، وهذا مجموع ما كتبت ، لم أقصد به شــيئا

مخصوصا ، ولا فنا منصوصا – قبل شيوع فن كتابة السيرة الذاتية – ، ولم أورد فيه إلا ما أملاه الخاطر ، أو رواه من أقيمه فى الصدق مقام الناظر .. وأشرت فيه إلى النكت العصرية ، فى أخبار الوزراء المصرية ، ومادام الليل والنهـار دائمين ، والشمس والقمر دائبين ، فالعجائب المتولدة صيور ، والتواريخ لها قيود ، وما يخلو الإنسان من بداية مهده ، إلى غاية لحده ، من الوقوع إما فى أحسن الأحوال أو قبح أهوال، ويستطرد وكأنه يقرأ الغيب .. « إذا لم تؤرخ النوازل ، عفى النسيان آثارها ، وطمس الإهمال أنوارها ، وأشرت فيه إلى ما شاهدت . من غير إفراط فى أوصافهم ، ولا تفريط فى إتصافهم ، وفى كتابى هذا أقتصر وأختصر ، وأذكر من مولـدى وموطنى ونسبى طرقا أبنى عليها أول حالى وآخر مآلى ، فقد قيل الإنسان من حيث يولد يوجب ، ومن حيث ينبت يثبت ..

وأما النسب فقحطانى ، وأما الوطن فمن أهل الجبال بتهامة اليمن ، من بلدة يقال لها مرطان ، آباؤه سادة قومه ، منهم العلماء والفقهاء والقادة « عندما بلغت الحلم ، سافرت وأقمت فى زبيد أدرس المذهب الشافعى ، وأتقن لغتى واتفقه فى دينى ثم عملت بالتجارة ، بين زبيد وعدن مدة عشر سنوات (من سنة ١١٤٣ م إلى سنة ١١٥٣ م) ، ونظمت الشعر واتصلت بملوك اليمن حتى قيل .. أصبحت تعد من جملة أكابر

التجار ، وأهل الثروة ، ومن أعيان الفقهاء الذين أفتوا ودربوا غيرهم ، ومن أفضل أهل الأدب منزلة وأفصحهم عارضة »

● الوبر والحضر

ولا يفوت قارىء هذه الفترة أن يلحظ ثقافة العصر ، التى تتميز بالاعتزاز بالأنساب ، وتميز البادية عن الحضر ، ويتباهى عمارة قائلا .. « وأهل تهامه اليمن ، أهلها بقية العرب، لأنهم لا يساكنهم حضرى ، ولا يناكحونه ، ولا يجيزون شهادته ، ولا يرضون بقتله قدرا بأحد منهم ، ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » ! ونمضى معه فى رحلة حياته ..

يحج إلى بيت الله الحرام سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ، وتتوثق علاقته بصاحب مكة قاسم بن هاشم أمير الحرمين ، ويبعثه إلى مصر برسالة إلى الفائز خليفة مصر الفاطمى ، وأخرى إلى وزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك ، واستغرقت هذه الرحلة نحو ثمانية أشهر ، أصبح فيها عمارة اليمنى أحد أبرز وجوه منتدياتها وهو المتحدث اللبق وصاحب النظم والشعر والبلاغة ..

استقبله الصالح فى قاعة الذهب فى قصر الخليفة ، والذى كان يطل على ما يطلق عليه اليوم شارع المعز لدين الله ، وفى اللقاء الأول وقف عمارة وأنشده :

فرين بُعْدَ مزار العز من نظـرى

حتى رأيت إمام العصر من أمم

فهل درى البيت أنى بعد فرقته

ما ســرت من حـرم إلا حــرم

حيث الخلافة مضـروب ســرادقها

بين النقيضين من عفو ومن نقم

وبعد إنشاده تلك الأبيات ، تدفقت عليه الخلع والعطايا ، فخلع عليه من ثياب الخلافة ، وناوله الوزير طلائع خمسمائة دينار ، وأرسلت إليه سيدة القصر بنت الحافظ الخليفة السابق خمسمائة دينـار أخرى ... « ونظمنى الصالح للمجالسة فى سلك أهل المؤانسة ، ووجدت بحضرته أعيان أهل الأدب » .

ولم يدر أن هذه أولى خطواته نحو نهايته .

● أحوال مصر ومجالسها

وينتقل عمارة فى سيرته بعد هذا المدخل إلى مذكرات سياسية هامة ، ينقل فيها للقارىء أحوال مصر ومجالسها ، بعد أن رجع إلى مصر للمرة الثانية سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م ، بعد أن أوفده مرة أخرى صاحب مكة ، ويحتفى به المصريون ، وعلى رأسهم الوزير طلائع ، وتتدفق عليه العطايا ..

وتغريه القاهرة ومجالس المؤانسة بالإقامة والاستقرار ، رغم أحداثها السياسية العاصفة ، ورغم حدة الصراع الفكرى والسياسى ، ولم يكن غريبا شيوع أحد جوانب الإرهاب الفكرى الذى يسجله عمارة اليمنى . ضاربا لذلك مثلا ، عندما وقع خلاف بين والى قوص وبين أمير الحرمين ، ونقل والى قوص للوزير الصالح .... « أنى - أى عمارة - طعنت فى مذهب الإمامية (الشيعة) فكتبت إليه :

ولى تحت دار الملك يومان لم تلح
لعينى علامات الكرامة والبشر
وقد أخذت أيام قوص نصيبها
فهل نقلت تلك السجايا إلى مصر

وبعدها خرج أمر الوزير باكرامى وإيصالى إليه .

ويورد مثلا آخر عندما يشكو ما يدور فى مجلس الوزير الصالح ... « جرى من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه ، قول الله عز وجل .. فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .. ، فاستوحش الوزير من غيبتى ، وتساءل : خيرا . فأجبت : لم يكن بى وجع ، وإنما كرهت ما جرى فى حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت.. وكان مرتاضا حصيفا لقى فى ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم ..

ورغم هذه الواقعة التى يثبتها فى كتابه ، يذكر عماد الدين الكاتب ، أن الصالح بن رزيك طلب من شاعرنا أن يصبح متشيعاً ، ويعطيه ثلاثة آلاف دينار ، وتأبى عمارة عن الانتماء إلى القوم .

● بين السقوط والقيام

ولا تمضى الأيـــام على حالها ، وتسقط البلاد فى عاصفة دامية ، ويقتل الوزير الصالح بن رزيك ، وتشتعل المنافسة الحادة بين ضرغام وشاور ، ويستنجد الخليفة العاضد – آخر الخلفاء الفاطميين – بنور الدين صاحب الشام ، فيرسل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتوالى الأمور والأحداث ، ويصبح أسد الدين وزيرا للخليفة ، وعندما يخطفه الموت يتولى الوزارة من بعده صلاح الدين . ويصبح وصوله إلى الوزارة الخطوة الأولى فى قيام دولة جديدة والقضاء على الخلافة الفاطمية .

وتنعكس هذه الأحداث على السيرة الذاتية لشاعرنا ، ويصف العديد من صورها .. ويروى مقتل الصالح قائلا .. « ولما قتل الصالح هاجت القاهرة وماجت ، وذل الجرىء وخاف البرىء ، فلم أشعر حتى وصلنى غلمانه بخمســين دينارا ، وقال إبنه الناصر .. » إنه قد جاءنا من هذا الأمر ما يشغلنا عنك ، وإنا لا ندرى ما تكون العاقبة ، فانقل أهلك إلى مصر –

ورتب أحوالهم بهذا الذهب ، فانتقلت إلى مصر ، وصعدت إليّ فوجدته فى قاعة البحر وهو لا يوصل اليه لفــرط الزحام عليه ثم بصر بى فأومأ لى بيده أن أدور من ناحية أخرى ، ففتح الخريطة وقبض لى منها قبضة بلا عدد ، زادت على الثلاثين، وقال : اشتر بهذه الدنانير على وجه العيد ما يحتاجه أهلك ، فإنا عنك مشاغيل .. »

ويروى عن مقتل الناصر بن الصالح بن رزيك ما يلى :

« دخلت قاعة السر من دار الوزارة وفيها طَيّ بن شاور وضرغام ، وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير ، ورأس رزيك بن الصالح بين أيديهم فى طست ، فما هو إلا أن لمحته عينى ، ورددت كمى على وجهى ، ورجعت على عقبى ، وما ملأت عينى من صورة الرأس ، وما من هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم ، إلا من مات قتيلا ، وقطعت رأسه عن جسده ، فأمر طَيٌّ من ردنى ، فقلت : والله ما أدخل حتى تغيب الرأس عن عينى ، فرفع الطست ، وقال لى ضرغام : لم رجعت ؟ ! قلت : بالأمس وهو سلطان الوقت الذى نتقلب فى نعمته . قال : لو ظـفــر بنا ما أبقى علينا . قلت : لا خير فى شــىء يؤول الأمر بصاحبه من الدســت إلى الطشــت » ! !!

واستطاع شاعرنا مع كل هذه التغييرات السياسية الدامية أن يحافظ على علاقات ود وصداقة ، مع الذين تقلبوا على

كرسى الحكم ، ونظم فى كل منهم المدائح ، وتلقى منهم العطايا ..

ولم يمنعـــه ذلك من أن يتأسى عند زوال دولة بنى رزيك ، ويذكر .. « إنما زالت دولة مصر بزوالهم » !! ، أما شاور خصم بنى رزيك فيقول عنه .. « أما أخلاق شاور فكانت مستورة باستمرار السلامة والطاعة والاستقامة ، ولم يكن فيها أقبح من قتل الناصر بن الصالح ، فإنها سودت ما ابيض من عالى قدره !!

ولم يمنعه رأيه هذا فى اليوم التالى لقتل شاور لابن رزيك من مدحه :

صحت بدولتك الأيام من سقم

وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

● الوزراء وأكابر الأمراء

« قد أتيت على نبذة يسيرة من الفقر العصرية ، فيما شاهدت من أحوال الوزراء المصرية ، وأنا ذاكر فى هذا المختصر نتفا جرت لى مع أقارب الوزراء ، وأكابر الأمراء ، فما منهم إلا من كاثرته ، وعاشرته ، وبلوت سمينهم وغثهم ، وقويهم ورثهم ، وانكشف المصقول من الصدى ، والجيد من الردىء .. »

هذا ما جاء على لسانه فى كتابه ، ولكن بينما يؤرخ لهذه الوقائع ، تظهر القاهرة غامضة وبلا ملامح ، ولا تلمس الأسى لديه وهى تحترق وتأكل النار بيته ، لكى لا تسقط فى أيدى الفرنجة ، وتبدو الهجمة الصليبية باهتة فى كتاباته ، وكأن القتال فى مواجهة الغزاة مثل غيره من الصراعات المحلية الأخرى . !

وكل ما نقله عن القاهرة مجالسته فى قصورها للوزراء والأمراء والأدباء ، ولم يشبعنا بوصف عمارتها وأسواقها أو جوامعها ، ونعرف فقط أنه كان يسكن صف الخليج ، عندما احترق منزله وحصل من شاور على تعويض .. « فمن كرم شاور بعد حريق دارى محل شط الخليج ، ونهب ما أبقيت النار لزمنى دين كثير فأداه عنى ، وبقيت منه مائتا دينـــار فدفع لى مائة ، وأمر لى بمائة كبش بيعت بمائة وعشرين دينارا ..» !

ولم نعرف من عادات وتقاليد القاهرة ، إلا أن الوزراء يتولون حتى مسئولية وجود زوجة صالحة له ... يقول .. « حضر ضرغام معى دفن امرأة لى ماتت ، فسأل .. أعندك حرة غيرها ، قلت : لا . فقال : لا خير فى دار ليست فيها حرة مهيبة ، ثم ذكر لى عدة نساء وقع الرأى على واحدة منهن . قال ضرغام .. على أن آخذ لك مهرها ، وكان حسن التأنى فى الحوائج .. »

ويسجل عمارة بعض الوقائع التاريخية ، ولكنه يوجز عندما ننتظر منه الإفاضة .. يروى .. « فى أول ليلة دخل فيها شاور القاهرة ، ارتحل أسد الدين شيركوه طالبا بلبيس للإقامة ؛ ثم عاد إلى القاهرة فكسر الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح ، وأصيب شاور على باب القنطرة بحجر كاد أن يموت به ، وتعقب ذلك تثقيل القتال حتى دخلت القوات المهاجمة من الثغرة، ثم تبع هذا مجيىء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس » .

وكثيرا ما سخط شاعرنا على ما يفعل ، وكثيرا ما قرر التوقف عن مدح الحاكم ، يقول .. « رأيت شاور يوما وقد انشرح صدره فقلت له : إن لى مدة تنازعنى النفس فى الحديث معك فى حاجة لدى ، أن تعفينى من عمل الشعر ، وتنقل الجارى على الخدمة راتبا على حكم الضيافة ، فإنى أرى التكسب بالشعر والتظاهر به نقيصة فى حقى ، قال شاور: فما منعك أن تستعفى فى أيام الصالح وابنه ؟ .. قلت : كانت لى أسوة وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحباب وبابنى الزبير ، وانقرض الجيل والنظراء .. وأجاب : تعفى ، ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائى ، وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك .. »

ولم ينقطع رغم ذلك - عن نظم الشعر، ولم يتوقف عن مديح الأمراء والحكام ، يغريه ما يجلبه المديح لقائله من النفوذ والفلوس ، والدولة الفاطمية من حوله تحلل .

وتميزت هذه المرحلة بضعف الخلفاء الفاطميين وتحكم الوزراء ، وتصارع الأجناد من سودان وأتراك ومغاربة ، مما كان إيذانا منها بنهاية الدولة الفاطمية .

● الوحدة والقوة

يدور الصراع بين أطراف الحكم ، واندمجت الحريم فى مؤامرات القصور ، وعمليات القتل والغدر ، من لم يمت بالسم قتل بخنجر فى الظلام ، والكل غافل عن الخطر الصليبى وعن المستوطنات التى تقوم فى الشام وفلسطين ، وأصبحت مصر نقطة لقاء وصراع بين كل من نور الدين والصليبيين ، ويعرف كل منهما أن من يضمها إلى جانبه سيحسم الصراع لصالحه . وفى ذلك يقول شاعرنا عمارة اليمنى :

يارب إنى أرى مصرا قد انتبهت

لها عيون الأعادى بعد رقدتها

وهب لنا منك عـونا نستجير به

من فتنـة يتلظى جمر وقدتهـا

وأدرك الجميع أن ما حققته الحملة الصليبية من نجاح يعود إلى غياب حاكم قوى ، ووجود عدد من الحكام الضعاف المتقاتلين ، ويؤكد المؤرخ الصليبى ويليم الصورى .. « لن تنعم القدس بالأمان ، إلا إذا استمر العداء بين القاهرة ودمشق .. »

وبدأ عماد الدين زنكى مسيرة التوحيد من الموصل إلى مصر ، ثم واصلها نـــور الدين محمود ، وأكملها صلاح الدين، الذى وضـع أمــامه هدفين ، هما توحيـد الشرق وطرد الغزاة بتوحيد مصر والشام .

● قراقوش فى القاهرة !

وتكملة حكاية عمارة اليمنى لا توجد فى سيرته الذاتية ، ولكن عند أولئك الذين دونوها ..

وكان من الطبيعى أن يواجه صلاح الدين فى القاهرة ، الجماعات التى تزدحم بها العاصمة من أنصار الخلافة الفاطمية ، ويسجل صلاح الدين فى تقرير أرسله إلى بغداد .. « وصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر .. » ، وفرض التهديد الخارجى على صلاح الدين أن يأخذ الناس بالشدة ، وظهرت شخصية مازالت رمزا للقسوة وهى شخصية الخصى بهاء الدين قراقوش ، الذى فرض رقابة صارمة على كل من عرف بميوله الفاطمية .

وكان المواطنون كما وصفهم القاضى الفاضل فى رسالة إلى صلاح الدين :

« ليس لك من المسلمين كافة مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج بين يديك

إلا بأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ، تدعوهم إلى الله . وكأنما تدعوهم لنفسك ، وتسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة وتعرض عليهم الجنة ، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم .. »

وسبق ورأينا كيف استنجد شاور بالصليبيين ودعاهم إلى إحتلال مصر . !!

وفى هذا السياق لم يكن شاعرنا يحتاج إلى تلك الرقابة الصارمة ، فلم يخف مشاعره عند زوال الدولة الفاطمية ، وراح يدبج القصائد فى رثائها ويظهر أسفه على زوالها ، وكتب لصلاح الدين قصيدة يشكو فيها حاله سماها « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » ، وعلى الجانب الآخر نظم قصائد يمدح صلاح الدين ، وأخاه شمس الدولة .

ومما نظمه :

أصبحت الأيام منقاده الرأس

إلى كفيه بعد الجماح

ملك إذا حدثت عن بأسه

قال الندى وأوكر حديث السماح

● العمل فى الخفاء !

ولما كانت أحد مكونات الدولة الفاطمية تقوم على الخفاء والستر ، كان إعلان زوالها إشارة البدء للعمل السرى لإعادتها ،

التنسيق بين الأطراف المتعددة ، من بقايا جنودهم ، وداعى دعاة مذهبهم ، وأن تبدأ خطة العمل التى تقوم على دفع قوات صلاح الدين التى يقودها شمس الدولة إلى اليمن ، وأغرى عمارة شمس الدولة ، بقوله :

أمامك الفتح من شام ومن يمن   فلا ترد رءوس الخيل باللجم

وعندها يتم الاتصال بالفرنجة وطلب تجريد حملة على مصر بقواتهم من الشام وصقلية ، والتنسيق مع الاسماعيلية فى الشام والحشاشين فى إيران ، وبعد نجاحهم فى إغراء الجيش بالسفر إلى اليمن نجحوا فى دفع أسطول صليبى إلى الاسكندرية من جزيرة صقلية قوامه ثلاثمائة سفينة .

وتتوقع الخطة أن يخرج صلاح الدين لقتالهم ، وينقض المتآمرون على من يتبقى من جنده فى القاهرة ، وكشف تفاصيل الخطة الفقيه الواعظ ابن نجا الدمشقى ، الذى رفض التواطؤ ، ولم يقبل التعاون مع الفرنجة ، ولكنه تظاهر بالموافقة ثم نقل خططهم لصلاح الدين الذى أمره .. « بمخالطتهم ومواطأتهم وتعريفه بالمتجدد من أمورهم .. » .

وعندما وصل رسول من الصليبيين إلى صلاح الدين ، واسمه جورج ... « إن جورج يحمل رسالة مخاتلة لا رسالة مجاملة ، ويحمل بلية لا هدية » ، وكان رجال صلاح الدين فى انتظاره يتابعون ويسمعون .

● ما سجله التاريخ

ويسجل ابن الأثير المؤرخ الذى عاصر تلك الأحداث بقوله:

صلب صلاح الدين ثانى يوم فى رمضان فى سنة ٥٦٩ هـ، جماعة ممن أرادوا الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين.

وسبب ذلك أن جماعة من شيعة العلويين منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العرويس، وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان ، وحاشية القصر ، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ، ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شىء بذلوه لهم من المال والبلاد ، فإذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه ، ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية ، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه ، فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به ، وأخذوه أخذا باليد لعدم وجود الناصر له والمساعد، وقال لهم عمارة .. وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده » .

ومازال الحديث لابن الأثير ..

« وأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ، ولم يبق إلا رحيل الفرنج ، وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم فى هذا .. الأمير زين الدين على بن نجا الواعظ ، والمعروف بابن نجيه ، وتبوأ الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقاضى ، إلا أن بنى رزيك قالوا : يكون الوزير منا ، وبنو شاور قالوا : يكون الوزير منا ، فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين ، وأعلمه حقيقة الأمر ، فأمر بملازمتهم ، ومخالطتهم ، ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه .

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشامى إلى صلاح الدين يهديه رسالة ، وهو فى الظاهر إليه ، والباطن إلى أولئك الجماعة .

وكان يرسل إليهم بعض الرسل وتأتيه رسلهم ، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال ، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به وداخله ، فأخبره الرسول على حقيقته ، فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة ، منهم عمارة وعبد الصمد والعروبس وغيرهم وصلبهم .

وكان ابن نجا الواعظ قد أبلغ القاضى الفاضل ، فأخذه إلى صلاح الدين فى الجامع ، فقام وأخذ الجماعة وقررهم ، فأمر القاضى بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلبه ، قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقه ، وظن عمارة أنه يحرض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : يامولانا لا تسمع منه فى حقى ، فغضب الفاضل وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان يشفع فيك ، فندم ثم أخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ولم يجتمع به . فقال عمارة !

عبد الرحيم قد احتجب ..

إن الخلاص هو العجب .

ويسجل الحال القاضى الفاضل الذى حاكم المتآمرين وأمر بإعدامهم .. « لا تخلو سنة تمــر ، ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ، ومكيدة يحيكونها ، وكان أكبر ما يتعللون به ، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة إلى الإفرنج ، يوسعون ، لهم فيها سبيل المطامع ، ويزينون لهم الإقدام والقدوم .. »

ومن هنا نتبين أن عمارة اليمنى ، لم يكن يعزف على قيثارته من أجل آمال وأحلام مجتمعه ، بل توجه بفنه إلى السلطان ، يطلب ذهبه وعطاياه ..

فانعزل الشاعر عن أهله ، وأمكن شنقه .

٥

" الاعتبـار "

أسامة بن منقذ

(٤٨٨ هـ - ٥٤٨ هـ)

هذه سيرة الفارس العربى أسامة بن منقذ ، الذى عاش فى عصر الشعر والفروسية ، وخاض غمار الحروب الصليبية ، وسجل تجربته فى كتاب « الاعتبار » ، التى تؤكد أن العجز أمام الغازى يؤدى عادة إلى التفكك والتناحر، وإذا إنتهى التناحر زالت الهزائم .

ومن هنا جاءت أهمية كتاب « الاعتبار » ، والذى يمثل وثيقة هامة ، إستمرت مجهولة ومحفوظة فى مكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، حتى نشرها المستشرق الفرنسى هيرتويج دربنورج، ثم ترجم بعدها إلى عدة لغات منها الفرنسية والروسية والانجليزية ، ونال الكتاب هذا الاهتمام لما يقدمه من حقائق حية حول أحد فصول الصراع بين الشرق والغرب .

وقام الأستاذ اللبنانى الأصل الأمريكى الجنسية الدكتور فيليب حتى بنشر المخطوط ، بعد أن صحح أخطاءه ، فقد أملاه صاحبه بعد أن تجاوز التسعين من عمره .

وعادة يلجأ الكاتب إلى تسجيل سيرته الذاتية ، عندما يدرك ذاته ويفهم عصره وتجربته إدراكا طاغيا ، وتلح عليه تجربته فيصوغها صياغة تفيض حيوية وحرارة ..

وتكشف سيرته الملامح الشخصية لبطلنا ، فهو ينتمى إلى عائلة عريقة ، يختار منها الأمراء ، وارتبط تاريخ أسرة المنقذ بإمارة شيزر فى الشام ، وأصبحت الفروسية والفصاحة جزءاً

من تاريخها، ووضعتها الأقدار وسط كل الصراعات التى جرت فى بر الشام .

وفيما يرويه عن نفسه نجده مقداماً رابط الجأش ، أبيا يهجر مسقط رأسه لكى يحافظ على إبائه ، ويتنقل فى قلب الأحداث بين القاهرة ودمشق والقدس وحلب ، يرسم ويخطط ويدبر ، يقود الجيوش ويحسم المعارك .

ولم يكن مخادعاً يوماً ، ولكنه كان سياسياً ماهراً ، إضطرته أحداث عصره أن يتعرف على طريقه وأن يجد أسلوبه الخاص .

وعبر عن تجربته شعرا جميلا صافيا .

يوصف وهو فى السادسة عشرة من عمره بأنه جسيم مثل أبيه، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ذو جبهة عالية يتوجها شعر حالك السواد ، تظهر على وجهه سمات النبل ، يجيد الرمى والقنص، حتى أنه يضع برتقالة على الأرض ويقف بعيداً عنها أربعين خطوة ولا يخطئها نشابه (قوسه) ، وهو ذو أنف مقوس ولحية مدببة ، نظر الى الحياة وهو الصيادالماهر على أنها كالغابة لا يسلم فيه سوى القوى .

يبث فى قلوب الصحاب والجند الشجاعة أثناء المعارك ، قليل الكلام ، وإذا تحدث فبصوت خفيض يملأه الثقة ، يقول عنه أبوه .. " أنه أمام إنسان لابد أن يجبر غيره على طاعته وقبول أوامره . "

لم يتطلع يوماً إلى الراحة ، ورفض الدعة والاستقرار ، واعتاد أن ينام وهو قاعد ، وإذا كان قد نجح فى إخضاع سيفه ، فلم يسيطر على مشاعره ، ولا يكف عن إبداء إعجابه بجوارى القصر ، وعجز عن مقاومة الحب والجمال .

ولخص أسامة دوره ودور الفارس فى عبارة موجزه .. « القوى للضعيف ، والفرد للمجموع » ، يسجل فى سيرته وشعره الكثير من صور الحروب الصليبية بكوارثها وأحزانها ، عاش خلالها حلاوة النصر ومرارة الهزيمة ، وانتقلت مشاعره بين اليأس والرجاء، وتراوحت وهو يتابع التطاحن بين الأمراء والمذاهب ، بينما الجميع مهددون بجيوش غازية جرارة .

وفى ظل الإهتمام المعاصر بذلك الفصل من التاريخ ، تقف سيرته مصدراً حيا ، يعكف عليه المؤرخون ، يبحثون وينقبون عن الحقائق التى إختفت وراء غبار المعارك ، وأخفاها التحيز بين أشلاء الضحايا تارة وصيحات المنتصرين تارة أخرى ، ولعل الوقت قد حان لإعادة تشكيل اللوحة التاريخية من جديد .

فقد جاء فارسنا إلى الحياة عام ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م ، أى قبل نهاية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، أى ذات العام الذى ألقى فيه البابا أورباتوس إشارة البدء لتلك الحروب الطاحنة ، عندما ألقى خطبته الشهيرة التى نادى فيها

بالتعبئة من أجل شن القتال لأنتزاع كنيسة القيامة فى القدس من أيدى من أسماهم بالأشرار ، وعلى إثر هذا الخطاب ، تنادى الإفرنج للحرب، واستجاب للنداء نحو مائة وخمسين ألف رجل ، وحملوا السلاح وتوجهوا إلى فلسطين فى قتال شرس إختلطت فيه أمانى الأتقياء وأعلامهم مع جشع التجار ، كما جذب النداء طموح القادة وأحلام المغامرين .

ووافت فارسنا المنيه عام ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م ، عندما آن لتلك الحرب أن تصل إلى نهايتها .

وقد صور دوافع هذه الحرب ويليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦م) أجمل تصوير ، عندما قال إنها إشتعلت لتحول دون نشوب القتال بين الإفرنج أنفسهم ، وجاء فى الفصل الأول من مسرحيته الشهيرة الملك هنرى الرابع ، على لسان الملك قوله :

لذلك يا أصدقائى

بقدر ما يتعلق الأمر بقبر السيد المسيح

الذى يقف جنده الآن تحت الصليب المقدس

نلتزم ونتعهن بالقتال

ونعقد العزم على أن نقوم فى التو واللحظة

بتجنيد قوة الإنجليز

الذين صبت أسلحتهم فى أرحام أمهاتهم .

لمطاردة هؤلاء الوثنيين فى تلك

الساحات المقدسة.

وقبل شكسبير بما يزيد عن أربعمائه عام قدم أسامة شهادته من على الجانب الآخر بعد أن عاش عهود الحكام المجاهدين الثلاثة، عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين .

● الأميــر العــربى

جاءت مذكرات الأمير العربى أسامه بن منقذ أطرف وأهم المذكرات العربية ، ونموذجاً حيا يروى صاحبه خلاله مغامراته بسهولة ويسر ، فى السلم وفى الحرب ، ويتجرد فى معظم أحكامه من الهوى ، وقد أملاها فى دمشق بعد أن أرعشه الكبر عن حمل السيف ، وقيده الهرم عن الرحلة والسفر ، وأودع فى هذه المذكرات كل رحيق حياته .

يبدؤها منذ الطفولة « أيام الحلم والأسطورة » ، وهنا نتفق مع ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوى من أن .. « كل ترجمة ذاتية مهما يكن من دقة صاحبها وبراعته فى الوصف ، ومهما يكن حرصه على أن يكون صريحا ، قاسيا فى تشريح نفسيته، والكشف عن نواحى حياته الحساسة المستورة ، هى مزيج إشترك فى تكوينه الحقيقة والخيال . »

ولم يذكر فى سيرته مآثره بل توزعت فى كتب سواه ، نوه عنها « أبو شامة » فى تاريخه « الروضتين » ، وذكر ما أبداه

من ضروب البسالة فى حصار قلعة " حارم " عندما كان فى طليعة المقاتلين ضد الغزاة ، كما أورد هذه الواقعة كلا من المقدسى وابن الأثير ، وكان صلاح الدين الأيوبى يطلب مشورته ، عندما عملا معا فى بلاط نور الدين ، حتى إتخذ صلاح الدين من إبنه مرهف مرافقا وجليسا له .

ويسجل أسامة فى كتاب « الاعتبار » فضل صلاح الدين .. يقول .. " نادانى إليه مكاتبة مولانا ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيبى دولة أمير المؤمنين .. فاستنقذنى من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملنى إلى بابه العالى يانعا الغامر الجزيل ، وجبر ما هاضه الزمان منى ، ونفق على كرمه ما كسد عنه سواه »

● المكـان :

وقبل أن نمضى فى جولاته وصولاته ، لنبدأ معه فى مسرح طفولته وصباه وريعان شبابه .

تقوم فوق تل صخرى أطلال قلعة وحصن يسمى سيجر ، يلتف من حوله نهر العاصى ، وييعد هذا المكان مسافة خمسة عشر ميلا غرب مدينة حماة ، وتقوم فوق هضبة سماها الجغرافيون « عرف الديك » ، يحدها فى الغرب خندق شقته يد البشر فى الصخر ، ولا تزال بقايا هذا الحصن شاهدا على مناعته .

وهذا التل وذلك الحصن شهد معظم الأحداث التى عاشها أسامة فى مطلع شبابه ، فقد آل هذا الموقع إلى بنى منقذ ، بعد أن تداوله كل من الروم والفرس ، وسيجر هى تحريف لكلمة شيزر القديمة .

ولد أسامة فى هذا المكان لأب صالح يزهد فى السياسة وفى المناصب ، تنازل عن الإمارة لأخيه عز الدين بن العساكر. وينقل أسامة عن والده قوله .. « والله لا وليتها ، لأخرجن من الدنيا كما دخلتها » .

ويقدم أسامه والده فارسا شجاعاً أديبا شاعراً تقيا ، يخرج إلى الصيد ، وعندما يستريح يتلو القرآن الكريم .. « يركض نهاره، ولا يتصيد إلا على حصان ، ونحن معه أربعة أولاد نتعب ونكل ، وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب ، ويطارد اليمامير فى أرض حصن الجسرة ، فصرع منها يوماً خمسة أو سته على فرس له دهماء ، وكنا إذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يتلو القرآن ونحن نتصيد حوله ، ولم يكن له شغل سوى الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله .. » و .. « كان الوالد ، كثير المباشـرة للحرب ، وفى بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشـه » ، « وما نهانى عن قتال ولا ركوب خطر قط ، مع ما كان يرى فىَّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لى » .

أما أمه ، فكانت توزع السلاح على الرجال ، حينما حوصرت القلعة يوماً بالأعداء ، ويروى أسامة ، أنها أخذت إبنتها الكبرى وأجلستها على شـرفة تطل على الوادى ، ويسأل أسـامة عن أخته « أى شىء تعمل ها هنا .. ؟ . تجيب الأم .. يابنى إذا رأيتهم قد وصلوا إلينـا ، دفعتها ورميتها إلى الوادى ، فأراهـا قد ماتت ولا أراها مأسورة بين يدى الأعداء ... » .

وكان أسامة إبنا وفيا لأبويه ولعصره ، ولم يكن غريبا أن تخلف هذه البيئة فارسا يقتحم المخاطر .

●الرحيل إلى مصر .

عاش أسامة بن منقذ فترة فى كنف عمه حاكم شيزر ، الذى كان يعده للإمارة ، فلم يكن له أولاد ، وشاءت الأقدار أن يرزق العم أولادا ، فتحول الحب والرجاء والرعاية إلى خوف وحقد ، ومن يومها لاحقته المتاعب ، وعاش ممزقا بين حبه لأهله وإشفاقه على نفسه ، وانتهى به الحال إلى الرحيل .

فرحل من شيزر إلى الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكى ، ولعل ذلك كان من حسن حظه ، فقد نجا من كارثة الزلزال التى ضربت شيزر سنة ٥٥٢ هـ ، وقضى خلالها على أسرة بنى منقذ بكاملها .

وعندما وصل أسامة إلى بيت المقدس حمل معه رصيدا كبيرا من التقدير ، فالملك فولك يذكره بالجميل الذى قدمه بنو منقذ لبلدوين الثانى ، وراع الفرسان الداوية فرسان المعبد - يرحبون به على إعتبار أنه الفارس المثالى .

ووصل أسامة إلى القاهرة عام ٥٣٩ هـ ، وفى صحبته أمه وزوجته وابنه وأخوه ونفر من أتباعه ، وهو يأمل أن يتمكن من القيام بدوره فى صد الغزاه ، فبلاده تخوض صراع أقدار ، وأخذت تقوم الإمارات الصليبية فى الشام ، وكانت سوريا وفلسطين تعانيان من التشرذم والتناحر ، واشتعلت المنافسة والقتال بين الإمارات ، وكان غياب حاكم قوى ، يوحد البلاد يساعد الإفرنج ويغريهم ، بينما الدولة الفاطمية تتفكك بعد أن إنتزع الترك السلاجقة قواعدها فى الشام ، واشتعلت الخصومه بين الخلافتين العباسية والفاطمية .

وبدأ عماد الدين زنكى يوحد البلاد الممتدة من الموصل إلى مصر ، والذى واصلها من بعده نور الدين محمود ، وأكملها صلاح الدين .

هذا هو باختصار السياق التاريخى الذى وصل خلاله أسامة إلى مصر .

وقوبل أسامة فى القاهرة بالحفاوة ، وأنزلهم الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى فى قصر الدار السلطانية التى بناها الوزير الأفضل بدر الجمالى .

وحرص أسامة على النأى بنفسه عن الفتن ومؤامرات القصور .. يقول .. « جرت أسباب أوجبت سيرى إلى مصر ، فأخذنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع على بين يديه، ورفع لى تخت ثياب ومائه دينار ، وخولنى دخول الحمام، وأنزلنى داراً من دور الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهى فى غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لا يستعاد منه شىء ، وأقمت بها مدة إقامة فى إكرام واحترام وإنعام متواصل » .

ولا يستطرد فى وصف الحياتين الإجتماعية والثقافية فى مصر، وهو الشاعر الأريب ، فرغم أنه نأى عن الفتن ، فقد إقتحمت حياته، رغم الحيطة والحذر ، ولاحقته الدسائس رغم حرصه على تجنبها ، واتهمته حاشية السلطان العادل – وزير الخليفة -- بالتحريض على قتله .

فقد كان الأفضل رضوان بن الولخش محبوساً فى دار بجانب قصره ، وتمكن الأفضل من الهرب إلى الجيزة ، وجمع

أمره على القتال ، وجند الخليفة جيوشه تحت قيادة صاحب الباب تاج الملوك قيماز .

واستسلم الجند للوزير الثائر ، الذى نزل إلى الجامع الأقمر، وعاهده بعض الأمراء بالطاعة والنفقة .

وجمع الحافظ السـودانية وأسكرهم وأطلقهم وراء الأفضـل ..

فاندفعوا إلى الجامع الأقمر يتصايحون ، فانفض الأمراء من حوله وأجهز عليه الجند .

وحام حوله الإتهام بأن له ضلعا فيما وقع بعد أن آلت الوزارة إلى صديقه أبى الفضل عباس بن يحيى ، الذى كان أسامة فى صحبته قبل مقتل السلطان ، وأعقب ذلك قتل الخليفة الظافر ووزيره ، ولاحق الإتهام أسامة ، وثار أنصار الخليفة عليه ، ودار القتال فى الشوارع والبيوت .

هكذا كان استقبال القاهرة له ، بلد يتناحر ويتفكك ، ويتصارع فيه الحكام ، وهى لحظات تسبق احتضار الدولة الفاطمية .

وزار أسامة ميصال الوزير ليبلغه أن الخليفة أقطعه إقطاعا بكوم إشفين فى القليوبية ، ومنحه عدة من الخيول والجمال والبغال السروجية ، ومائة رأس بقر عدا الماشية .

غير أنه طلب إليه ألا يبرح إلى إقطاعه حتى يأذن له مولاه الخليفة ..

وكانت فرصة لكى يتفقد القاهرة التى بهرته باتساعها وكثرة عمارتها .

هذه هى العاصمة التى تصلح أن تكون حاضرة العالم ، وهى التى تستطيع أن تواجه الفرنجة .

ونتابعه يصف بعض ما جرى بقوله ... « القتال فى الشوارع والأزقة ، خيالتهم تقاتلنا فى الطريق ، ورجالتهم يرموننا بالنشاب والحجارة من فوق السطوحات والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .. »

ويرسم بقلمه صورة بائسة للحياة السياسية فى القاهرة ، الفساد وتطاحن الجند والأمراء ، وتعدد الجماعات المسلحة ، بعضها من برقة وبعضها مغاربه وفرقه ثالثة من السودان ، وبعضها من الترك والغز والديلم ، مضافاً إليهم العربان ،

يتقوى كل أمير بأحدى هذه الفرق ، مع إنصراف الأهالى إلى الزوايا وانتعاش الحركة الصوفية ، واهتزت القيم ، وزلزلت العروش ، مما أفسح المجال ... « لصراع الكباش ونطاح العنزات » !

وينجح بصعوبة بالغة فى استمراره على الحياد بين الفرق المتصارعة ، ويحافظ على صلاته بالسلطان حتى أوفده الملك العادل – ابن سلار – وزير الخليفة الفاطمى فى مهمة إلى نور الدين ، يسأله منازلة الإفرنج فى طبرية حتى يشغلهم ، وتتمكن القوات المصرية من الهجوم على قواتهم فى غزة ... « تأخذ معك مالاً وتمضى إليه لينازل طبرية ، ويشغل الإفرنج عنا ، لنخرج إلى غزة .. » ، ويجيبه نور الدين ... « أهل دمشق أعداء ، والإفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما »

ولا يصبح أمام أسامة بعد هذا الجواب ، إلا أن يجمع بعض الفرسان ويقوم بالمهمة بنفسه يقول « فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة شهور ، هجمنا فيها مدينة يبنى – فى فلسطين – ، وقتلنا نحو مائة نفس .. ثم جاءنى كتاب – المالك العادل يستدعينى فسرت إلى مصر .. »

وفى القاهرة ، زار أسامة دار الحكمة التى أسسها الحاكم عام ٣٩٥ هـ ، وأدخل داعى الدعاة كلا من الحافظ وأسامة بعد أن طاف بهما المكتبة التى تشمل آلاف الكتب :

وقال الحافظ ، « ها هنا كلام المشارقة الذى يخالف مذهبنا ، وحتى يتمكن دعاتنا من الرد عليهم سنظل مفترقين . » وأضاف الحافظ ، « إن ما يعنى المسلمين اليوم هو الإفرنج ، وسنأخذ على عاتقنا مواجهتهم ، لأن مصر تستطيع وستفعل ..

ولكن هيهات فقد استمر الصراع والتناحر على السلطة والمؤامرات التى تدبر بليل ، وأمراء يتنازعون قيادة فرق الجيش ، والخليفة يخرج للقنص أو العبادة ، وأسامة معه ..

يموت خليفة ويأتى خليفة يموت الحافظ ويأتى الظافر ، والفرقة قائمة .

● أسوان أحد الثغور .

ويزور أسامة القاهرة مرة ثانية ، وقد إشتدت بها الفوضى، ثم يغادرها ويترك عائلته بها ، ويروى فى مذكراته ... « إتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، وكاتبت الملك الصالح فى تسيير أهلى وأولادى الذين تخلفوا بمصر ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الأفرنج ... »

وكتب الملك الصالح – وزير الخليفة – إلى أسامة يطلب منه العودة إلى مصر قائلا : « أنت تعرف ما بينى وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكه ، وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تتقوى به على المحاربة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك .. »

ولكن ينصحه نور الدين قائلا .. « ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها ، وتعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، آخذ لأهلك الأمان من ملك الافرنج ، وابعث من يحضرهم .. »

ورغم الأمان وقع أهله أسرى فى أيدى الافرنج أمام ساحل عكا .

● صراع وتفاعل

ولعل الخيال أو تلك الصور التى جاءت فى سيرة أسامة ، تقدم لنا صور الافرنج فى المخيلة العربية خلال هذا الفصل من تاريخ الصراع بين الشرق والغرب ، ففيها العديد من اللمحات العامة التى لا تجدها عند سواه من الكتاب .

فكما تتضمن الأحداث الكبرى ، القضايا الهامة تجد التفاصيل الدقيقة أيضا ، وألقى أسامة الضوء على مجموعة من التفاصيل التى تؤكد التفاعل خلال الصراع .

وحقاً ما ذكره المؤرخ البريطانى المعاصر السير ستيفن رونسيمان .

علاقة الشـرق بالغرب ، سلسـلة طويلة للتفاعل والاختلاط ، « نمت الحضارة الغربية من خلال هذه السلسلة ، وكانت الحملات الصليبية حلقة مأساوية هدامة ، فقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كثير من التقوى وقليل من التفهم ، فلطخت المثل العليا القسوة والجشع ، والتفانى والجلد لوثهما الإحساس الذاتى الأعمى ، وإختلط فيها أخيرا السمو الأخلاقى بضيق الأفق .. »

فكان العرب يعرفون الافرنج قبل هذا الفصل من الصراع، من خلال العديد من الكتابات التى ألفت خلال القرن التاسع الميلادى ، وهناك سلسلة من الدراسات الشرقية عن الغرب رصدها برنارد لويس فى كتابه « كيف إكتشف المسلمون أوروبا » ، وتضم هذه الدراسات ما أضافه الخوارزمى إلى المعرفة العربية ، وإذا قلت معرفة العرب بما يجرى وراء أسبانيا وفرنسا وروما واليونان ، ولكن سرعان ما وصلت المعرفة العربية إلى الجزر البريطانية وايرلندا والدول الاسكندنافية مع بداية القرن العاشر ، بفضل مؤلفات كل من ابن الفقيه والمسعودى ، وساهمت كتب الرحالة فى المزيد من المعرفة ، فوصف هارون بن يحيى روما ، وكتب إبراهيم بن يعقوب عن الأيرلنديين وعاداتهم وملابسهم ووصف صيدهم

للحيتان ، وجذب إهتمامه تجارة بوهيميا وصناعتها الجلدية ومنسوجاتها ، علاوة على أن معرفة عرب الأندلس لأوروبا كانت أكثر دقة فى كتابات الإدريسى ..

ومازلنا فى حاجة إلى من يقدم هذه الدراسات على الجانب العربى ...

وها هى ذى جحافل الإفرنج تأتى إلى بر الشام غازية ، فى صراع أقدار ، وقد تصوروا أنهم أرفع شأنا ومنزلة من أهل الشرق .

ويقدم لنا أسامة صورة الإفرنج فى مخيلة المسلمين فى هذه المرحلة التاريخية ، عندما يسجل الأثر الذى تركه الإفرنج بقوله .. « إنهم بهائم ، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير »

وفى أتون الصراع قام تفاعل أوقات السلم ، وقامت علاقات عملية جديدة ، عندما توصل الفريقان المتصارعان إلى أتفاق على حماية التجار والمسافرين ، ووضعوا بعض الأنظمة لذلك ، بل وكثيراً ما تأثر الغزاة بحياة الشرق ، فتخلى بعض الإفرنج عن لباسهم الأوروبى ، وارتدوا الملابس العربية ، وفضل قادتهم سكنى البيوت الشرقية الطراز ، وقامت علاقات زواج بين رجال من الشرق ونساء من الغرب والعكس ، حتى نشأ جيل من أبنائهم أطلق عليه « بولان » ، كما وجدت الإمارات الصليبية التى وجدت نفسها داخل شبكات التحالفات والخصومات القائمة بين الإمارات العربية .

وأدرك كلا الفريقين أن كلا منهما لديه نسق حضارى متكامل .

وعالج أسامة فى العديد من اللمحات التفاعل الداخلى بين البشر . من وحى تجربته الشخصية ، فكان عدوا لهم أحيانا ، وصديقا لهم أحيانا أخرى ، عندما عاش سقوط الدول والإمارات الإسلامية تحت سنابك خيلهم ، ثم وهو يشاهد هزيمتهم واندحارهم، ونجده يطلق عليهم ألفاظا مثل شياطين وكفار ، ويطلق على فرسان الداويه، كلمة أصدقائى ، ويلاحظ " أنهم – لعنهم الله – أكبر الناس إحترازا فى الحرب .. » ! .

بل ونجده يسافر فى مطلع حياته من بلدته شيزر إلى انطاكية التى يحتلها الإفرنج حتى يتعرف على حياتهم ، ويعرف مصدر قوتهم ونقاط ضعفهم .

وتوجد ملاحظات ذكية متفرقة طوال ترجمته الذاتية ، يتأمل نظام الفروسية الذى يتبعونه ، ويقول .. « والإفرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى والمشورة وهم أصحاب القضاء والحكم ..

ويبدى دهشته أن حكمهم لا يستطيع أن ينقضه حتى الملك ذاته، ويروى التجربة التى عاشها .... « حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس – إحدى الامارات

الصليبية – ، وبيننا وبينهم صلح ، فقلت للملك فولك بن فولك حاكم بيت المقدس هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت صغارها ، وردها علينا بعد أن أتلفها .. » ، فطلب الملك من بعض فرسانه بحث هذه القضية، فحكموا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم ... « فتوسل إلى ,وثقل على ، وسألنى حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم لا يقدر الملك أن يغيره ولا لينقضه .. »

وفى نفس الوقت يستنكر من ناحية أخرى عدالتهم فى معاملة المتهمين ، عند معافيتهم عن طريق إلقائهم فى الماء أو المبارزه ، وأرجلهم مصفدة ، والنجاة وحدها تصبح دليل براءتهم ، رغم كونها دليلاً مزيفا ، ويقع سيف العقاب لأن الإحتكام لمن يحدد العقوبة وطريقة تنفيذها ، فماذا يبقى بعد موت الضحية ..

قال له ملك الإفرنج مرة .. « وحق دينى لقد فرحت فرحاً عظيما، عندما قالوا أنك فارس عظيم ، وما كنت أعتقد أنك فارس .

قلت « يامولاى ، أنا فارس من جنسى وقومى .. »

● الأمير والاسكافى !

ويمضى أسامة قاصاً كل غريب طريف ، ويقول .. « لا يتكلمون إلا بالأفرنجى وما ندرى ما يقولون .. !! ، ورغم هذا

يظهر تأثير تلك اللغات فى كتاباته ، فيستخدم كلمات مثل البرجاس أى البورجوازى ، والبرونس أى الأمير ، والداما أى السيدة ، ويدهشه تمسكهم بأبناء جلدتهم رغم كل المغريات ، ويدلل بالحكاية التالية .. « صار لوالدى عدة من الجوارى من سبى الافرنج ، وهم لعنهم الله جنس ملعون ، لا يألفون لغير جنسهم ، واختار والدى منهن جارية مليحة شابة ، وقال لكهرمانة داره ، أدخلى هذه الحمام ، وأصلحى كسوتها ، وأعديها للسفر ، وسيريها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة جعبر – على نهر الفرات – وكتب إليه .. غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها ، فوافقته وأعجبته وأتخذها لنفسه وولدت له ولداً أسماه بدران ، كبر ومات والده ، وتولى بدران الإمارة والرعية ، وأمه الآمرة الناهية ، ورغم ذلك ، تدلت بحبل وهربت من القلعة ، ومضت إلى بلدة للإفرنج ، وتزوجت بافرنجى إسكافى ، وتخلت عن إبنها وقلعته ! »

ومع صداقاته التى تكونت تكثر القصص والحكايات ، فها هو أحد الأصدقاء من الإفرنج ، يقترح عليه أن يصحب ولده مرهف إلى بلاده ليتعلم ، ولنتابعها كما يرويها أسامة ..

فى عسكر الملك فلك فارس محتشم وصل يحج ويعود ، فأنس بى وصار ملازمى ، يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة ، فلم عزم العودة إلى بلاده ، ومرهف معى وهو ابن أربع عشرة سنه ، قال لى .. يا أخى أنا سائر إلى بلادى ،

وأريدك تنفذ معى إبنك ، يبصرالفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل ، فطرق سمعى كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن إبنى لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحة إلى بلاد الإفرنج .

قلت له : وحياتك هذا الذى كان فى نفسى ، ولكن منعنى من ذلك أن جدته تحبه ، وما تركته يخرج معى حتى إستحلفتنى أن أرده إليها .

سأل : أمك تعيش .. ؟

قلت : نعم .

قال : لا تخالفها . »

ويلحظ تقدم الطب فى الشرق أكثر منه لدى الغرب ، ويروى ما يؤكد رأيه يقول .. « طلب صاحب المنيطرة - بلدة شمال لبنان تطل على نهر ابراهيم - من عمى طبيبا يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل له نكاسيا عربيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد .

فقلنا له : ما أسرع ما دويت المرضى .

أجاب : أحضروا فارسا ظهر فى رجله دملة ، وامرأة أصابها نشاب ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصاحت وملحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها .

وجارهم طبيب أفرنجى ، فقال لهم : هذا ما يعرف شىء يداويهم ، وقال للفارس أيما تحب تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ قال . أعيش برجل واحدة .

قال الطبيب : إحضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، وحضر الفارس والفأس ، فحط ساقه على قربة خشب ، وقال للفارس إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها ، فضربه وما انقطعت ، وضرب ضربة ثانية فمات من ساعته .

ثم نظر للمرأة وقال : هذه إمرأة فى رأسها شيطان قد عشقها، إحلقوا شعرها ، ولما عادت تأكل مأكلهم الثوم والخردل .

قال : الشيطان قد دخل فى رأسها .

وأخذ الموسى وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس ، وحكه بالملح فماتت فى وقتها .

فسألتهم : هل بقى لى حاجة .. ؟

قالوا . لا . »

ولكنه فى وضع آخر يقول .. « وشاهدت من طبهم خلاف ذلك. »

ويؤكد مهارتهم فى صناعة الدواء .

● أبحث عن المرأة .

ومنذ زمن أسامة بن منقذ وحتى اليوم ، تثير العلاقة بين الرجل والمرأة لدى الإفرنج الرجل الشرقى ، فعندما يتطرق الحديث إلى عادات وتقاليد الإفرنج ، يجد الشرقى فى هذه العلاقة نقطة تمايز جوهرية بين الشرق والغرب .

فأول ما يلفت نظر أسامة ما تتمتع به المرأة عندهم من حرية ، فأفاض فى نقد ذلك ، وهو ذات الموقف الذى اتخذه رفاعة رافع الطهطاوى بعد تسعة قرون عند زيارته لباريس عام ١٨٢٦ .

ووصف رفاعة الفرنسيين بقوله .. « ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة .. »

وهى ذات كلمات أسامة الذى يقول .. « ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة ، يمشى الرجل مع إمرأته ويلقاه آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فــإذا طولت خلاها مع المتحــدث ومضى .. »

ويؤكد رأيه هذا بالعديد من الحكايات ، ويبدى دهشته من أن بعض النسوة قد لبسن الشفوف المطرزة ، وجلسن على الدواوين ، يستمعن إلى أنغام العود والرباب . »

فهل يختلط فى حديثه النفور مع الإعجاب ؟!

ويحكى كيف جاء إفرنجى يوماً ووجد رجلا فى فراشه مع أمرأته .

فسأله : أى شىء أدخلك عند امرأتى ؟

قال : كنت تعبانا دخلت لأستريح .

قال : وكيف دخلت إلى فراشى .. ؟

أجاب : وجدت فراشا مفروشا نمت فيه .

قال : والمرأة نائمة معك .

قال : الفراش لها ، وهل أقدر منعها من فراشها .

قال الزوج : وحق دينى إن عدت وفعلت ذلك مرة أخرى تخاصمنا أنا وأنت »

ويعلق أسامة قائلا : « وكان هذا كل تفكيره ومبلغ غيرته »

ويروى قصة غريبة أخرى جرت وقائعها فى حمام المعرة .

يدخل أحد فرسان الإفرنج إلى الحمام ، ويرى عربيا حليق العانه ، ويطلب منه أن يعلمه كيف يحلقها ، وبعد أن علمه طلب منه ، ما يؤكد قله غيرتهم ، وهو أن يعلم « الداما » أى إمرأته ، وأرسل فى طلبها وجاءت إلى الحمام ، واستلقت على ظهرها ، حتى علمها ، ورجلها قاعد ينتظر .. ثم شكر العربى على حسن صنيعه . !

ويتساءل أسامة معلقا .. « ليس فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشـــجاعة العظيمة ، وما تكون الشـــجاعة إلا لمن لديه النخوة والانفة .. »

وأخذ ينتقل هذا الموقف من الأجداد للأبناء ، وأصبح المتفرنج ، يتركز فى موقفه من المرأة !

هذه بعض شذرات من سيرة أسامة ، الذى توفى وطويت صفحته فى مساء يوم الاثنين ٢٣ رمضان سنه ٥٨٤ هـ . ودفن فى جبل قاسيون فى دمشق بعد حياة حافلة وتوفى فى السنه التالية للعام الذى إسترجع فيه صلاح الدين بيت المقدس ..

ويقوم هذا الفصل من الصراع بينما يتوازن فيه قوة الشرق مع الغرب ، وبعدها إختل التوازن لصالح الغرب ، وعاش الشرق فى غفوة طويلة .

وبقيت سيرة أسامة تبحث عمن يقدمها إلى القارىء العربى بأسلوب عصرى ، فهى نموذج صالح لفيلم سينمائى كبير وثرى .

وعندها ستتحول شـــهادته على عصر بأكمله إلى عمل حى جــذاب .

٦

إحراق كاتب

لسان الدين الخطيب

(٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ)

من القيم الأساسية لارتقاء الانسان وتقدمه ، حرية الفكر وحرية التعبير ، وهما اللتان يستعد منهما الكاتب مكانته ، ويتمكن على أساسهما من إبداء رأيه وطرح فكره ، حتى إذا كانت هذه الأراء ليست على هوى البعض أو لا تروق لبعض دوائر الرأى العام ..

وساد أوروبا العصور الوسطى الظلام والتخلف ، عندما غابت حرية الفكر ، وتعرض أصحاب الرأى لصور شتى من الاضطهاد ، ودفع الكثير منهم حياته ثمنا لمعتقداته ، ولم يكن الشرق استثناء فى كثير من الأحوال .

ومأساة الكاتب والشاعر والوزير اللامع لسان الدين الخطيب مثال ناطق ، عندما دفع حياته ثمنا لأفكاره ، وقتل خنقا واشعلت فيه النيران ، بعد أن احرقت مؤلفاته فى ميدان عام ، واتهم بالالحاد والزندقة وهو المفكر والفيلسوف والطبيب والمؤرخ ..

وعادة ما يدفع المفكر ثمن موقفه السياسى ، حتى يكون أمثولة لغيره من الكتاب ، وكأنها دعوة صريحة للمفكرين للانصراف عن الحياة العامة ، وتجنب التصدى للقضايا الحقيقية .

كما تعكس مأساة لسان الدين الخطيب فى أحد جوانبها أزمة العلاقة بين العالم والسلطان ، وأزمة الحياة الفكرية ، فى عصره ، الناتجة من الشقاق والفتن ، ومن تكالب العلماء على الدنيا ، والرضا بالجمود الفكرى ، وتظهر قصته قدم توق الانسان إلى الحرية ، وأن أعظم وأنبل الأعمال والأقوال تلك التى تأتى من أولئك الذين يعملون فى حرية واستقلال .

وأخطر ما تفصح عنه حكايته . ما يواجه المجتمع عندما تتوحد فيه السلطات وخاصة السلطتين الزمنية والدينية ، مما يضفى القداسة على تصرفات الحاكم ، ويتحول ما يراه ويصبح الحق كله وماعداه هو الباطل والضلال .

● ذروة المأســـاة

ويساعد على رسم تفاصيل المأساة ، ما تركه لنا لسان الدين الخطيب من ترجمته الذاتية موزعة على مؤلفاته ، وخاصــة كتـــاب « الاحاطة » الذى يتضمن الجزء الرئيسى منها ، وترى خلالها كيف يذهب المفكر ضحية الجهل والتعصب والأكاذيب ، وكيف تمكن أعداؤه من الخلاص منه ! ..

ذروة المأساة .. يهجم الأوغاد والعامة وعلى رأسهم سليمان بن داود من حاشية بلاط غرناطة ، ويطرقون سجنه ليلا ، ويزدحمون على حراسه ، مؤيدين بسلطان فاس ورجاله ، ويفتح باب السجن العتيد ، لا لكى يفرج عن رب السيف والقلم ، والذى يملأ اسمه السمع والبصر ، ولكن لكى يكتموا انفاسه ويقتلوه خنقا ، ولعلهم خافوا بعدها أن يشهر قلمه ويفضح دوافعهم ، وصغار نفوسهم ، فعادوا فى اليوم التالى ، وقد ملأ الحقد والغل قلوبهم وأخرجوا رفاته من القبر وأشعلوا فيها النيران من جديد ... « فأحترق شعر الرأس ، وأسودت البشرة، ثم أعيد إلى القبر قبل أن تأتى عليه النار » ويكمل ابن خلدون ... « إنه الهالك شهيدا بسعاية أعدائه ، وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها هؤلاء الأعداء ؟!

لقد لاحقه بعد فراره من غرناطة رجال السلطان ، واستغلوا الظرف السـياسى الطارىء ، بعد أن تربع أحمد بن السلطان أبى العباس عرش المغرب بمساعدة سلطان غرناطة ، وحان وقت قبض الثمن ! فكيف له أن يخرج من أراضى ولى النعم ؟!

يفسر الخطيب دوافع رحيله من غرناطة برغبته فى التفرغ للعلم والدرس والابتعاد عن السياسة وألاعيبها ، ويفسره

خصومه بالسعى لتوحيد غرناطة مع المغرب حتى يتمكنا معا من صد الغزاة ووقف الهزائم المتلاحقة ..

وأيا كانت دوافعه فى الرحيل ، فهو لا يستحق هذا المصير، وعقد السلطان أبو العباس مجلسا لمحاكمة لسان الدين الخطيب ، لكى يعفيه هذا المجلس من المسئولية ، وحشد فيه رجال الدولة ، ورددوا علي مسامعه التهم التى سبق أن وجهت إليه ، والمتعلقة بالانحراف الفكرى ، والزندقة والمروق عن الدين والخروج على الشريعة ، واحتجوا عليه بكتابه فى الحب الالهى « روضة التعريف بالحب الشريف » وهو أحد كتب التصوف ، وينقل إلينا المقرى فى كتابه نفح الطيب جانبا من هذه المحاكمة ، يقول .. « لما قلبت الأيام ظهر المجن لابن الخطيب.. أكثر أعداؤه فى شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الاسلام ، بتنقص النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، والقول بالحلول والاتحاد ، والانخراط فى سلك الالحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة فى الاعتقاد ! » وليس لدينا معرفة بما دار فى هذه المحاكمة الصورية ، ويمكن لنا أن نتصور أن كاتبنا قد ألزمهم الحجة ، لما عرف عنه من رباطة الجأش وقدرة عالية وثقافة واسعة وتأثير كبير على مستمعيه ، ومن الضرورى أنه كاد أن ينجح فى تحويل دفة محاكمته وإلا ما عذب بعد هذه الجلسة على الملأ ، وما أرسل مخفورا إلى السجن ، وما اقتحم عليه الغوغاء محبسه بليل ، وكتموا

أنفاسـه ، ولم ينتظروا أن تقوم السلطات الرسمية بتنفيذ حكمها ..

وذكر لنا ابن خلدون .. « أن الأقوال التى قيلت فيه أثارت من حوله عاصفة من السخط .. » !!

ويعلق عبدالله عنان الذى حقق كتاب « الاحاطة » وكشف النقاب عن المفقود من تراثه ، قائلا .. « حاولنا العثور على شىء مما ذكر يصلح سندا للاتهام ، ولم نجد شيئا من ذلك ، بل على العكس ، رأينا روضة يانعة حافلة بمزيج رائع من الآراء والنظريات ، التى تشع بالايمان والخشوع ، وتشهد لصاحبها بسلامة العقيدة ، وصدق الطوية ، والبعد التام عن كل ما يمكن أن يوسم صاحبها بالخروج أو الالحاد .. »

ولعل ذلك هو الذى دفع خصومه ، قبل مصرعه ، إلى إحراق دليل براءته ، وموضع تمكنه ومحل امتيازه ، فأحرقوا مؤلفاته فى أحد ميادين غرنـاطة .. « بمحضر من الفقهاء والمدرسـين والعلماء .. » !!

وكان أغرب اتهام وجه إليه ، وهو المؤرخ ، أن تراجم الأحياء والأموات إنما هى إحدى صور الغيبة المحرمة ! ، وإذا أخذ برأى المحكمة ، لكان عليها أن تلغى علم التاريخ ، من الطبرى وحتى ابن خلدون ، فماذا بقى للفكر الانسانى بعد إلغاء الفلسفة والتاريخ ؟!

● الهزائم والفتن

ولنبدأ القصة من أولها ، بعد أن تابعنا ذروة المأساة التى تنال من حرية الفكر وحرية التعبير .. عاش لسان الدين الخطيب فى عصر مضطرب ، تتوالى فيه الهزائم والفتن ، وهو ذات العصر الذى عانى فيه ابن خلدون ، وذات الظروف التى قرر فيها الرحيل إلى القاهرة والانصراف إلى المعرفة ، وذات العصر الذى دفع بابن بطوطة إلى آخر العالم ..

يقدم ابن خلدون هذا العصر بصورة شائقة وعجيبة ، فغرناطة البلدة الوحيدة التى نجت من حركة الاسترداد ، وهى بلدة صغيرة تقع وسط ثلاث دول معادية تفوقها قوة هى قشتالة وأرجوان والبرتغال ، مما جعلها فى حالة استنفار دائم وقتال مستمر ، ويشير الخطيب إلى ذلك .. « الصبيان تتدرب على السلاح ، وتتعلم المثاقفة ، كما يعلم القرآن فى الالواح .. »

ويأتى هذا العصر بعد أن دام حكم الاسلام فى الأندلس حوالى ثمانية قرون من سنة ٧١١ م حتى سنة ١٤٩٢ م ، وعاش كاتبنا فى غرناطة آخر هذا العصر وحقا ما يقوله ابن خلدون « لكل أمة ميقات، ولكل دولة عهد نمو وازدهار ثم ذبول وهرم وانحلال ، فبين سنة ١٢٣٨ م و ١٢٦٠ م ، فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة ، وجايم الأول ملك أرجوان مدن بلنسية وقرطبة واشبيلية ومرسية ، وتراجع العرب وتزايدت مشاعر

الفشل والاحباط وفقدان التوازن ، والذى كان كاتبنا ضحية له وشاهد عيان ! ..

ويصف شاهد العيان الخطيب أهل غرناطة ... « الغناء بمدينتهم فاشٍ حتى فى الدكاكين التى تجمع كثيراً من الأحداث ، وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وخفة الحركات، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، إلا أن الطول ينذر فيهن وقد بلغن من التفنن فى الزينة والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر .. »

وفى موضع آخر يعبر عن عصره بعدم الثقة فى إخلاص العامة وحسن ولائها ووجوب الحيطة والحذر من حركاتها ، ويصفهم بالدهماء قتلة الأنبياء وعبدة الأهواء - وكأنه يتنبأ بمصيره - فقد قام الشعب فى أيامه بأكثر من تمرد غيرت مصير السلطان وبدلت الملك ، وكأن الخطيب رجل البلاد القوى، يوجهها ويسهر على مصيرها ، وكانت سياسته كما سجلها هى .. « مداراة عدو تكالب على البلاد ، وسياسة بلاد قد صم عن الملام ، وتعدى حدود النهى والأحلام .. »

● الكاتب لسان الدين

هذا هو العصر الذى شهد ظهور الخطيب ، فقد ولد ببلدة لوشه غربى غرناطة سنة ١٣١٣ م - ٧١٣ هـ ، وأعطى لقب

لسان الدين تقديرا وتكبيرا ، والوزير هو رئيس الوزراء بتعبير هذه الأيام ، ينوب عن السلطان ويهيمن على شئون الدولة ، ويشرف على الكتابة وديوان الانشاء ، وذو الوزارتين أى الذى يجمع بين السيف والقلم ، وعرف بما يتمتع به من قوة الاقناع والتأثير الشخصى ، فهو أحد النماذج العلمية والادبية الباهرة والذى كان مزيجا من مواهب متعددة ، واختلط عمله كرجل دولة ووزير وسياسى بصورته كمفكر وكاتب وشاعر ، فهو رجل دولة بالنهار وكاتب ومفكر بالليل ، مما أعطى خصومه وسيلة الخلاص منه !

ويصف لنا الخطيب فى سيرته الذاتية مركزه فى الوزارة وما أعطاه السلطان من ثقة ... « قلدنى السلطان سره ولم يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسنيه ، وأتمننى على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه .. »

ويمضى شارحا الأعمال التى كان يؤديها فى عهد السلطان محمد الخامس ... « الوقوف بين يدى السلطان فى المجالس العامة، وإيصال الرقاع وفصل الأمر ، والتنفيذ للحكم، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والانشاء ، والمواكلة والمجالسة ، جامعا بين خدمة العلم ولقب الوزارة ، منفردا بسر السلطان .... وبلغت الحظوة منتهاها ، والدرجة التى تؤمل

بأبواب الملوك إلى الأماد أقصاها ، إلى أن وقع الكياد على الدولة .... ولما هلك السلطان بعنى أبو الحجاج ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، إلى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى فى أخوة المتغلب على الأمر به ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثـورته ، على القبض علىّ ، ونكـث ما أبرم من أمانى .. »

وهو يشير هنا إلى الانقلاب الذى فقد خلاله السلطان محمد ملكه عام ١٣٥٩ م ، ونفى إلى المغرب ، وتولى أخوه اسماعيل مكانه، ولحق الوزير سلطانه المخلوع ، واستمر النفى حوالى ثلاث سنوات عاد بعدها السلطان إلى عرشه بعد حروب وخطوب .

● سجنه الأول

ونعود إلى رواية الخطيب الذى يحكى ما وقع له بعد الانقلاب يقول .. « أعتقلت بحال نرفيه ، بعد أن كبست المنازل والدور ، واستكثرمن الحرس ، وختم على الاغلاق ، وأبرد إلىّ ما نأى ، فأستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات الأمثال - يقصد أملاكه » ... ويضيف .. « وخرجت - من الأندلس - لا أملك إلا نفسى وفضل ربى ، ملطوفا بى باستصحاب أهلى وولدى .. » وقضى فترة النفى

هذه فى المغرب ، وإذا كانت سـيرته الذاتية موزعة على كتبه والجزء الرئيسى منها فى كتـاب « الاحاطة » إلا أنه يصف المغرب وحياة أهلها ورحلاته فى ربوعها فى كتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » وهو وصف فيه حيوية دافقة وملاحظة دقيقة ويتسم كله بروح الدعابة .

يروى مثلا صعوده إلى أحد جبال الأطلس ، جبل هنتانة ، وينسب إلى قبيلة هنتانة التى تسكنه أنها فرع من قبائل حموده .

ويصف معيشة شيوخ قبيلة هنتانة بحسن استقبالهم له ، ويصف صنوف الطعام التى قدموها له .. فرحب وأسهل ، وارتاح واغتبط ، وألطف وقدم ، وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه المستندة إلى سفح الطور .. محترم عند سيدة الأحامرة الثلاثة اللحم والمسك والخمر !

● المحنة الثانية

وتعرض بعد محنته الأولى ، وعودته مع السلطان إلى محنة أشد، فهل استفاد من محنته الأولى ، أم مسته المرارة ؟ وهل اكسبته المزيد من الخبرة .. ؟ واستوعب الدرس القاسى .. وهل يستعين على الدهر بالتجارب ؟ . هذا ما يجيب عليه الفصل الثانى من حياته .

فقد تولى منصب الوزير من جديد ، ورد إليه السلطان سائر املاكه .. « التى خلصت بالشرع موجباتها ، ووضحت فى سبيل الاستحقاق بياناتها » بل وأعفى من الضرائب عليها . وكانت ولايته هذه المرة مطلقة يستأثر فيها بالنفوذ ويتمتع بثقة السلطان ، ويصف هذه الفترة ، بأنه « سار مراعيا ربه ، حذرا من النقد ، ووجه عنايته إلى « روم الثغور » وتثمير الجباية وانصاف الحماة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ، واستعنت بالله ، وعاملت وجهه ، من غير تلبس بجراية ، ولا تشبث بولاية ، مقتصرا على الكفاية مشفقا من الغرور ، هاجر الزخرف ، صادعا بالحق فى أســواق الباطل ، وصرفت الفكر لبناء الزاوية والمدرســة والتربة .. »

وبدأت مؤامرات القصور ، وتتابعت الصراعات والفتن ، ويشهد على هذه المرحلة ابن خلدون ويتهم الخطيب ، أنه جنح هذه المرة إلى الاستئثار بالسلطة والانفراد بالحل والعقد ، ودفع إلى تدبير المملكة، وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه ..

وظهر من ينافس الخطيب على الحظوة والسلطة ، قائد الجيش عثمان بن أبى يحيى ، الذى ساهم فى استرداد

السلطان لملكه ، واحتدمت المنافسة ، وكسب الخطيب ، ورغم ذلك يذكر الخطيب .. « لم أعدم الاستهداف للشرور ، والاستغراض للمحذور ، والنظر الشذر المنبعث من خزر العيون .. » وانتهى الأمر بأن زهد فى المنصب ورغب فى الافلات من أسره .. « لما أشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة والتيه على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان ، فى استنجاز وعده برحلة الحج ، ورغبت فى تبرئة الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة .. » وكان فى مقدمة خصومه رجلان ، أحدهما تلميذه ومعاونه أبو عبدالله بن زمرك ، وقاضى القضاة أبو الحسن النباهى .

ويروى الخطيب إحدى حلقات القصة .. « وثاب لى النظر بإزماع الفرار ، ومصانعة السلطان بالتأنى له ، والانحطاط فى هواه ، وشرعت فى عقد السلم مع العدو لسنين ، ورتبت الأمر ترتيب الآباء للبنين ، وقلت أحج نفسى وأقضى فرضى ، وأشغل الناس بغيرى ، فاقتضيت من المولى ابن فارس عبد العزيز – سلطان المغرب – وقد اتصل بى فضل دولته ، وطهارة نشأته ، عهدا بخطه ، ضمن لى المشاركة فى أعراضى من إقامة .. »

● الفـــرار !

وخرج الخطيب من غرناطة وكأنه يتفقد الثغور الغربية فى كوكبة من الفرسان ، واتجه إلى جنوب حتى دخل جبل طارق الذى يتبع سلطان المغرب ، وأبرز إلى قائدها عهد السلطان عبد العزيز ، فرحب به وجهز السفن لنقله إلى سبتة ، واستقبل فيها بحفاوة كبيرة.. « فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله بمجلسه محل الأمن والغبطة ، ومن دولته مكان الشرف والعزة » كما علق ابن خلدون على وصــول الخطيب .

ويعود الخطيب ويضيف .. « فارقت الأهل والمال والولد ، والجاه الذى بلغ الأبد ، لا لدنيا فانية .. ولا لخدمة نستأنفها عوضاً تلك .. ولا لفرار أمام جناية ، ولا لفتكة فى مال جباية ، ولا لتفويت معقل لعدو الملة ، ولا لسفك دم يطلبنى بتتبعه ، ولا لخيانة فى أهل ، ولا لسعى على ملك ، نبرأ إلى الله من ذلك كله، إنما نلخص قصدى فى الفرار إلى الراحة ، والتفادى من حمل الكلفة ، والاشتغال بما يعنى، لكن فى ظل العافية ، وتحت سحاب النعمة ، وذمة الحرمة ، نسأل الرقيب على ما فى القلوب ، إن كنت قد شابتنى فى ذلك شائبة ، أن لا يمتعنى بالبقية ، ولا يمن علىّ بحسن الخاتمة .. »

وتهتز غرناطة لفراره ، ويحكم على لسان الدين الخطيب بالموت، ويلاحق بلاط الخطيب فى فاس ، ويرسل القاضى

رسالة إلى السلطان عبد العزيز ، يبلغه حكم الموت ، ويرد سلطان فاس بقوله.. لماذا إذا كان زنديقا لم تنفذوا فيه الحكم وقد كان لديكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ؟! بل وزاد السلطان فى اكرام ورعاية الخطيب، وكرر سلطان غرناطة المحاولة ، وأرسل هدية فخمة من الأمتعة النفيسة والذخائر الأندلسية ، والبغال الفارهة ، والعلوج والجوارى ، ويصف الهدية ابن خلدون بأنه لم يسمع بمثلها .. والتمس الرسل تسليم الخطيب ، ويأبى السلطان مرة أخرى ، ويعكف الخطيب على البحث والتأليف فى دعة ، حتى توفى السلطان عبد العزيز ، والذى كان إيذانا بامكان تحقيق غرناطة هدفها .. وذكر الخطيب .. « ثم دك الجبل العاصم من الطوفان والممسك للأرض عند الرجفان ، فكان موت المولى الذى أوينا إليه ، وعولنا عليه ، ووثقنا بوعده ، وتمسكنا بعهده . » وأدرك الخطيب أن النهاية اقتربت ، وسرعان ما أودع لسان الدين الخطيب السجن ، وبعث ابن الأحمر تلميذ الخطيب وخلفه فى الوزارة عبدالله بن زمرك، لكى يتولى المهمة ويضمن هلاكه !

● العالم والسلطان

ويتغير الميزان بين العالم والسلطان عندما تتردى العلاقات بين العلماء ويدس بعضهم البعض الآخر ، وينتهى بهم الحال إلى ضعفهم جميعا ، وتقلص دورهم ، وتدهور مكانتهم .

وهذا ما تؤكده مأساة لسان الدين الخطيب ، فأدوات القضاء عليه ، ومن نسج خيوط المؤامرة التى أودت بحياته ، أمسك بأطرافها غيره من العلماء .

ونلاحظ بداية ، تدهور العلاقات التى كانت قائمة بين ابن خلدون وابن الخطيب أكبر علماء عصرهما ، بعد أن ارتبط الصديقان بعلاقات عميقة ، فهما متشابهان ولديهما اهتمامات مشتركة رغم فارق السن بينهما ، فبدأت العلاقة بينهما وابن خلدون فى شرخ الشباب وابن الخطيب فى طور الكهولة ، يتجاوز فارق العمر بينهما العشرين ربيعا . يخاطب ابن خلدون صديقه بقوله .. «سيدى مجدا وعلوا ، ومحل والدى برا وحنوا» ويرد ابن الخطيب .. « سيدى ووليى وأخى ومحل ولدى ..

يلتقى العالمان لأول مرة فى فاس ، عندما كان الخطيب لاجئا إليها بعد الانقلاب السياسى الذى أطاح به ، وعبد الرحمن بن خلدون من كبار رجال الدولة فى فاس ، ومنذ اللقاء الأول ، وهما يتبادلان المواقع ، وانتهى الأمر بنجاح ابن خلدون من الرحيل ، إلى القاهرة ، وحجز ابن الخطيب ، وكان ابن الخطيب يتفوق على ابن خلدون فى بيانه ويتفوق عليه ابن خلدون فى حسه التاريخى .

وتمضى الأيام وتزداد العلاقات بينهما توثقا ، ويعود الخطيب ظافرا إلى بلاده ، ويتبادلان الرسائل ، وعندما يتعرض ابن خلدون فى فاس لمحنة مشابهة ويفقد حظوته

ونفوذه فى بلاطها ، يرحل إلى الأندلس ، ويستقبله ابن الخطيب ويحتفى به ، ويبالغ السلطان فى الترحيب به ، معرفة لقدره ، ويرسله فى سفارة إلى ملك قتشالة، ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه .. « ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا للوزير ابن الخطيب ملابستى ، واشتماله علىّ ، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر ، وشممت منه رائحة الانقباض .. ولم يبق محل لاطالة الاقامة ولا مناص من الرحيل » !

ومن جديد يدور الزمن دورته ، ويعود ابن خلدون لسابق نفوذه ، ويتآكل نفوذ لسان الدين الخطيب ، ويتعرض للخطر ، ويكتب لابن خلدون ، ويعجز ابن خلدون عن تقديم العون له ، ولكنه يسجل بقلمه مأساته وينقل قصيدة حزينة أنشدها الخطيب قبل مصرعه ، تقول كلماتها :

وكنا عظاما فصرنا عظاما
وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا
غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب
وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منهم له
فقل يفرح اليوم من لا يموت

وتلقى لسان الدين الخطيب الطعنات القاتلة من كل من الوزير ابن زمرك وقاضى القضاة النباهى ، وهما رجلان جمعت بينه وبينهما الصلات ، حتى لقد ترجم لهما ابن الخطيب فى كتابه « الاحاطة » ويصف ابن زمرك بأنه من مفاخر غرناطة ، وينوه بذكائه ، أما النباهى فكان للخطيب الفضل فى توليه هذا المنصب عندما سعى إلى تعيينه قاضيا وخطيبا للمسجد الجامع وأسبغ عليه الثناء وجميل الصفات وأحسنها ، بل وظفر من جده بأكرم النعوت والخلال ، وبادله النباهى المدائح ، فقد وصف لسان الدين الخطيب بأنه الآية البالغة ، وقد طمست الأعلام والعزة الواضحة ، وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة ،وذهب الكرام وهو بالنسبة إليه الركن الذى مازلت أميل على جوانبه ، ولا تزيد الأيام إلا بصيرة فى الاقرار بفضله والاعتداد به !

والنباهى هو الذى أعد وثيقة الاتهام ضد الخطيب ، وهو الكاتب الذى كثيرا ما يجد الطغاة أمثاله لكى يقوم بالأدوار القذرة ، وأصبح كلام الخطيب عنده .. « حشو كثير من كلام إقذاع وفحش بعيد عن الحشمة والحياء » وأن فرار الخطيب هو غدر بسلطانه ، ويوجه حديثه لابن الخطيب .. « مددتم إلى التمتع بغيرها أعينكم ، فلم يكن فرارك من الأندلس إلى الله

بالتوبة المكملة والاستغفار مع الانقطاع فى أحد المواطن المكرمة وهى طيبة أو مكة أو بيت المقدس .

... وتبين أنــه لغير وجه الله كانت نية هجرته .. !! »

ويضيف .. « ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة ، امتعاضا لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ، ما صدر عنكم ، من العبث بالابشار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال .. »

ويصل النباهى فى ختام رسالته ، بعد تحويله الموقف السياسى المعارض إلى انحراف أخلاقى ، إلى التنديد بنشأة الخطيب المتواضعة ، ووضاعة أصله ، وحداثة عهد عائلته فى المال والنعمة ، ويكفى أن أستاذه ابن الجياب أنف من مصاهرته . وإن اعتداده بملاذ الدنيا من ثراء وطعام ولباس ، إنما هى خسة وصغار . »

ويصفه لســان الدين الخطيب وهو يــرد عليه بالقزم الدميـم « الجعسوس » ويسخر منه قائلا . « النباهى الشيخ القاضى اليـوم بغرناطة .. أطروفة الدنيا وأضحوكتها شكلا وعلما وخلقا .. » ثم وضع رسالة خاصة فى هجوه سماها «

خلع الرسن فى التعريف بأحوال أبى الحسن ، يصـور فيها خصمه فى سـخرية وتندر فهو « فى الطرف والاستظراف يسلى الثكالى » !

فهل يمكن أن يترك هذا القلم طليقا ؟!

ويصف ابن زمرك بقوله .. « وأن نفذ القدر المكتوب ، فأنا المعتوب ، إذ إصطنعته ودوجته ، ولغيرى ما أحوجته ، فاتبع الطريقة ، وغاص بلجتها فاستخرج الدرر الغريقة ، فهو اليوم صدر العصبة ، ونير تلك النصبة ، وآدابه مستحيلة ، ومحاضرته خميلة ، وخلقه لولا الخبث والغدر جميلة ، ينظم وينثر ، وعلى القبور يعثر ، وأكثر أجـادته فى القصائد التى تطول ، ويلوى بدينها الطبع المطول .. »

وذهب لسان الدين الخطيب شهيدا للكلمة ، وأثبت أن على الكاتب أن يبدع بشجاعة ، ويشارك فى الحياة العامة وانه لا يستطيع الكاتب أن يقدم شيكا على بياض لأى كان ، فكثيرا ما تكون جسارة الكاتب أن يرفع صوته ضد التيار ، وأن يطير فى غير سربه ، وأن يعطى ظهره لشبكات المصالح والعلاقات العشائرية ..

فإذا كان من حق المثقف أن يخطىء ، فليس من حقه أن يـدافع عن أراء متناقضة فى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة .

٧

التعريف بابن خلدون
ورحلته شرقا وغربا

(٧٣٢ هـ – ٨٠٨ هـ)

لا يتناول هذا الكتاب ، آراء وأفكار العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، الذى قدم لأول مرة علماً جديداً أطلق عليه فيما بعد « علم الاجتماع » ، وإنما يتناول سيرته الذاتية التى سجلها فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » .. عندما استعرض تجربته التى عاشها ، وملامح عصره خلال القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .

وكما كان رائداً وبارعاً كمؤرخ وكاتب فى علم الاجتماع ، كان رائداً فى فن السيرة الذاتية ، رغم أن كتاب « التعريف » أقل شهرة من « المقدمة » .

وتكاد تكون سيرته الذاتية أهم سيرة فى التراث العربى .

وتميزت قصة حياة ابن خلدون بالصدق والصراحة حتى نجده يتناول بعض الأمور التى يحرص الناس عادة على اخفائها ، مثل ما دار فى لقائه بالغازى تيمور لنك ، وهنا نراه يقترب من فن الاعترافات الذى يغلب فيه الحرص على تقديم العبرة أكثر من الدفاع عن الذات ، وتقصر سيرته فى أغلب صفحاتها على الحوادث العامة غير الشخصية ، ولا تقدم الكثير عن حياته اليومية أو الخاصة ، كتبها من يدعو الى اعمال العقل واستخدام المنطق ، والبحث عن أسباب الوقائع والأحداث ، كما عنى بالأخبار والمراسلات بينه وبين الامراء والعلماء ، ووصف بدقة أحوال بعض المجتمعات ، مثل تصويره الدقيق لحالة الفساد التى كانت تسود شئون التقاضى ، عندما

عمل قاضيا فى القاهرة ، ويسجل طريقة تبادل الهدايا بين الملوك والامراء ، ونجده لا يكاد يتعرض لمشاعره وحالته العاطفية . ولا يتنـــاول تلك التفاصيل العادية التى تتألف منها حياته ، وحياة كل فرد مهما كان شأنه ، ولم تتحكم عواطفه فيما خطت يده ، يتناول مثلا تلك الفاجعة المتعلقة بهلاك زوجنه وأولاده فى ثغر الاسكندرية ، فيغلب عنده الموضوعى الذاتى ..

● حياة صاخبة

ويقدم لنا فى سيرته حياة حافلة بالحركة ، صاخبة ، مضطربة ، فياضة بالأحداث والمغامرات ، والتقلبات السياسية، يبحث ابن خلدون دائما عن الآفاق الجديدة والتجربة العميقة ، يتنقل بين ربوع المغرب والمشرق وبلاد الأندلس .

يعيش طفلا مرفها ، وصبياً طموحاً موهوباً ، وشاباً عنيداً وعالماً كبيراً وصعلوكا ووزيراً ، وقاضياً وسجينا .

يذكر في النعريف : « أما نشأتى ، فإنى ولدت فى تونس فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة » أى ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م ، وهو سليل أسرة عربية عريقة ، هاجرت الى الأندلس ، وكان أحد أجداده كريب بن خلدون من زعماء ثورات اشبيلية ، ولقى مصرعه في تلك الثورة وعندها انتقلت الأسرة الى المغرب ، واحتلت مناصب هامة ، ولم يخل تاريخها من ثوار

ومغامرين وعلماء ، تضم عائلته دائما رجال دولة بارزين ، وعلماء وشعراء موهوبين ، فالجد الثانى لابن خلدون ترأس الوزارة فى تونس ، ومات مقتولاً فى إحدى الثورات ، وتولى جده الوزارة أيضا .. وأما والده فقد آثر حياة العلمـــاء ، يدفع اولاده الى التـــردد على مجـــالس العلماء .. « تعلمت صناعة العربية على والدى ، وكان على ولده عبد الرحمن أن يحفظ القرآن الكريم ، ولم يبلغ الحلم ، وأبدى شغفاً بالمعرفة فى وقت مبكر ، ومازال المسجد الذى تعلم وحفظ فيه القرآن معروفا فى تونس باسم مسجد القبة ..

وعندما بلغ عبد الرحمن الثامنة عشرة من عمره عصفت به الأحداث مع هجوم الطاعون سنة ٧٤٩ هـ ، وانهار كل شىء مات أبوه وماتت أمه ، ومات أغلب من يتلقى عليهم العلم من شيوخه ، وهاجر من تبقى منهم الى المغرب الأقصى هرباً من براثن المرض فعجز عن متابعة دراسته وتغير مجرى حياته .. يذكر : « لم أزل منذ نشأت ، وناهزت ، مكبا على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم والكتابة الى أن كان الطاعون الجــارف ، وذهب بالأعيان والصدور ، وجميع المشيخة ، وهلك والداى .. »

ولا يتحرر فى سيرته الذاتية أبداً من التمرد ولا من البحث الدائب عن الآفاق الجديدة ..

● **عصر ابن خلدون**

وقبل المضى معه فى وقائع حياته ، نتوقف عند ملامح عصره ، تعرض العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر الى نكسة فى تاريخ العرب السياسى ، وعاش بين المطرقة والسندان ، يواجه الزحف الصليبى على جناحه الغربى فى الأندلس والشام ، وزحف التتار على جناحه الشرقى ، وكان بالنسبة لابن خلدون عصر قلق وتحد .

ولكنه تجاوز محنة عصره ، وأبدع أهم ما كتب معالجاً مسألة العمران والنهضة .

أما ثقافة هذا العصر ، فيلاحظ أنها لم تكن مقصورة على ثقافة النقل .. بل تتخطاها الى أعمال العقل ، وترتبط بتطور العلوم ، وبالبناء السياسى والاجتماعى ، فازدهرت خلالها العلوم الطبيعية وخاصة الطب والرياضة والفلك ، ويعيش العالم الاسلامى وحدة ثقافية وفكرية ، ويذكر لنا كتاب التعريف أن ابن خلدون درس مؤلفات ابن سينا وفخر الدين الرازى ، ونصير الدين الطوسى ، والفيلسوف العربى ابن رشد ، ومن أهم أساتذته أبو عبدالله محمد ابن ابراهيم الآبلى ، الذى حاز : « المعرفة الشاملة ، والعلوم العقلية والنقلية » والتى تشمل المنطق والعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والموسيقى ، عندما يذكر الكتب التى أطلع عليها يفرد جانبا هاماً لكتاب الأغانى « جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم ،

وأيامهم ، ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد - ويضيف ابن خلدون - ولعمرى انه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر ، والتاريخ ، والغناء ، وسائر الأحوال .. ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلم وهو الغاية التى يسمو اليها كل أديب »

لذلك لم يكن غريبا أن يتميز أسلوب ابن خلدون بالدقة والتحديد، والسهولة ، والوضوح ، فأعاد للأسلوب العربى رونقه، ويذكر فى كتابه التعريف : « كان أكثر الرسائل يصور بالكلام المرسل .. وانفردت بأسلوب كان مستغرباً عندهم بين أهل الصنعة » .

● مرتع شباب ابن خلدون

وبقى المسرح الذى شاهد رحلة حياته الشاقة ..

قامت فى المغرب على أنقاض دولة الموحدين ، ثلاث دول ، توزعت بين التل والسهل والصحراء ، وأطلق ابن خلدون على التل « موطن البقر » ، والسهل ، « موطن الشاة » ، والصحراء « موطن الجمل » .

أفريقيا - تونس اليوم - أول قطر انتزع من دولة الموحدين، قامت به الدولة الحفصية والتى كانت تمتد بين مدينة

تونس وخليج قابس شرقا ، والمسيلة غرباً ، وتضم مدناً تاريخية مثل القيروان والمهدية ، وقسنطينة وبجاية .

وفى المغرب الأوسط .. قامت دولة أخرى هى امارة تلمسان التى استطاع بنو عبد الواد اقامتها على يد يغمراس بن زيان ، والتى يقع أغلبها فى جزائر اليوم .

وفى فاس المغرب الأقصى قامت دولة المرينيين والتى تبدأ من وجدة ووداى ملويه حتي المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن شاطىء البحر الأبيض شمالاً حتى بلاد السوس جنوباً .

وكانت دولة بنى مرين هى أقوى الدول . فاستطاع السلطان ابن الحسن أن يزحف شرقاً ويستولى سنة ٧٣٣ هـ على تلمسان وسائر المغرب الأوسط الذى كان بأيدى عبد الواد ، ثم استولى سنة ٧٤٨ هـ علي أفريقيا (تونس) وانتزعها من يد بنى حفص ، واسترد من جديد ملك بنى حفص واستوزر أبا محمد بن بارفراكين والذى فى عهده تولى ابن خلدون أول عمل وهو « كتابه العلامة » والذى يوضح لنا فى التعريف بقوله « وضع الحمد لله ، والشكر لله بالقلم الغليظ ، بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم » .

وهكذا كانت دول المغرب العربى امارات متنازعة ، وحكاما ضعفاء ، ونظاما قبليا حاكما ، تقع بينها الحروب ، ولا تستقر دولها طويلا ، ولا يتجاوز بقاء أمرائها بضع سنين أو بضعة شهور .

وكان على ابن خلدون أن يشق طريقه فى ظل هذه الظروف، وأن يحاول استعادة مركزه داخل تلك التقلبات والمنازعات والأزمات السياسية .

● **طغيان الشباب**

ما الذى يرويه ابن خلدون خلال فتوته وشبابه ؟ ..

لا يمكن أن نغوص معه فى بحر المنازعات المحلية بكل تفاصيلها ، ونكتفى بالتوقف عند أبرز أحداث تلك الفترة ، والتى ساهمت فى تكوينه كمفكر فذ .

ساهمت بوضوح فترة عمله مع الأمراء والسلاطين فى التعرف على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة، فهو يحضر مجالس الحكام والعلماء ، ويشارك فى الأحداث بما يملكه من ملاحظة ثاقبة وعقل نافذ ، وساعده ذلك على أن يمزج العلم بالواقع ، والأفكار بالوقائع ، وأن يبلور أفكاره ومشاهداته فيما يسمى فن الحكم وعلم السياسة .

بدأ حياته السياسية بعد تعيينه فى « قلم الكتاب » استجابة لالحاح أخيه الأكبر ، ثم أصبح كبير الامناء بالديوان فى تونس ، وتزوج خلال هذه الفترة من ابنة قائد جيش الحفصيين محمد ابن الحكم .

ورحل الى فاس هربا من الاضطرابات التى شهدتها أفريقيا ، والتحق فى بلاط السلطان أبو عنان .. يذكر : « على

كره منى ، أن كنت لم أعهد مثله لسلفى ، وعكفت على النظر والقراءة ، ولقاء المشيخة من أهل المغرب والأندلس » ..
وسرعان ما تولى الحجابة ، أى الأمانة العامة بلغة هذه الأيام ، وأخذ يشارك فى مجالس السلطان ويساهم فيما يدور فيها من مناظرات علمية .

وجذبته واستغرقته الدسائس السياسية ومؤامرات القصور وأخذ يترك أميرا للالتحاق بآخر اكثر قوة ، لعله عن طريقه يحصل على امكانيات أكبر وأوسع وأن يبلغ أفاقاً أرحب ، فنراه يترك عاهل تونس ويلتحق بسلطان فاس ، وينتهى به الأمر الى السجن الذى يمضى فيه واحدا وعشرين شهراً ، ولا يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبو عنان ، ويبدأ بعدها دوره البارز كرجل دولة ، يتولى أعلى المناصب فى الدولة المارينية ، ويعيش فى ظل نفوذ صديقه عمـــر بن عبداللّه ، ويتولى وظيفة كاتب الســـر والانشـــاء ، ويتولى « خطة المظالم » أى القضاء الذى يصفه بقوله : « هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ، ونصفه القضاء وتحتاج الى علو يد ، وعظيم رهبة ، تقنع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى »

وخلال كل هذه التقلبات لا يكف عن الدرس والقراءة ، فكان يستغل كل الفرص المتاحة للاطلاع على خزائن الكتب الخاصة فى فاس وتلمسان وتونس وبجاية وغرناطة ..

ولكنه يحكى فى كتـابه ، عن طغيـان الشباب وطموحه ، يقول : « كنت أســـمو بطغيان الشباب الى أرفـع مما كنت فيه » .

● حـرية الفكـر

ونتعرف فى سيرته الذاتية على واقعة زلزلة كيانه ترتبط بحرية المفكر وأزمة المثقف فى عصر ابن خلدون وهـى الفجيعة المأساوية التى حلت بصديقه لسان الدين الخطيب ، ولا شك أن مأساة صديقه تركت أكبر الأثر على حياته كمفكر يعمل بالسياسة .

ارتبط الصديقان بعلاقات عميقة ، واهتمامات مشتركة رغم فارق السن بينهما ، فعبد الرحمن فى شرخ الشباب ولسان الدين فى طور الكهولة ، يتجاوز فارق العمر بينهما العشرين عاماً .

دفع لسان الدين الخطيب حياته ثمنا للمنازعات السياسية وهو المفكر والشاعر والفيلسوف والكاتب والمؤرخ - كما ذكرت - .. وقدمت مأساته أمثولة للمفكرين والكتاب ، وكأن مأساة ابن الخطيب دعوة لهم جميعاً للأنسحاب من الحياة العامة ، والاحتماء بالأبراج العاجية ، وتجنب التصدى للقضايا الحقيقية والاكتفاء بتناول المسائل الهامشية .

التقى ابن خلدون وابن الخطيب لأول مرة فى فاس ، وكان هذا اللقاء حدثا هاماً فى حياة كل منهما ، وقتها كان ابن خلدون من كبار رجال الدولة في فاس ، وكان ابن الخطيب لاجئا اليها من غرناطة بعد أحد الانقلابات السياسية .

ومنذ هذا اللقاء الأول ، وهما يتبادلان المواقع ويحتمى كل منهما بالآخر .. وسجل كل منهما سيرته الذاتية فى كتابيهما « الاحاطة » و « التعريف » ويحرص كل منهما على تسجيل تجربته للأجيال المتعاقبة فى ذلك العصر المضطرب .

● وترجم كل منهما حياة صاحبه

يذكر ابن خلدون فى ترجمته عن ابن الخطيب .. « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه انتشـــرت فى الآفاق قدماه » .. ويسلم بأنه لا يقدر على مساجلة .. « ابن الخطيب في الترسل اذ لم يكن شـأوه يلحق فى ذلك » وهو عنده .. « امام النثر والنظم فى الملة الاسلامية غير مدافع » ..

ويشيد ابن الخطيب بدوره بصفات ابن خلدون ومواهبه ومقدرته العلمية والبيانية ، يقول : « جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لفتن الرأسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى

عدة فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور » .

ويحكى ابن خلدون قائلا : « خرج الوزير لسان الدين الخطيب الى مكان نزلى ، ثم نظمنى فى علية أهل مجلسه ، واختصنى بالنجو فى خلوته ، والموكبة فى ركوبه ، والمواكلة والمطاية والفكاهة فى خلوات أنسه » ..

ومن ناحية أخرى بالغ سلطان غرناطة فى اكرامه ، وبعثه سفيراً الى ملك قشتالة بطره (بدور) سنة ٧٦٥ هـ - ١٣٦٤م، وأدى مهمته بنجاح ، ولما عاد بالغ السلطان فى اكرامه فاستقدم أسرته من قسنطينه ، وعاش فترة نادرة مع أسرته .. ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه ، واتهم ابن الخطيب فى ذلك التحول ، خشية منه على مكانته ونفوذه ، يذكر ابن خلدون : « ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستى للسلطات ، واشتماله علىّ ، وحـــركوا له جواد الغيرة فتنكر ، وشممت منه رائحة الانقباض ... ولم يبق محل لأطالة الاقامة ولا مناص من الرحيل » .

ويدور الزمن دورته من جديد ، ويعود ابن خلدون لسابق قوته ونفوذه فى بلاد السلطان أبى عبد الله صاحب بجاية ، ويروى ابن الخطيب عن ابن خلدون أحد المسائل التى تجنب روايتها ابن خلدون فى سيرته ، وهى زواجه بجارية أسبانية .. « تسرى

جاريه رومية إسمها هند .. » كما يسجل التى داعب بها صديقه صبيحة زواجه يقول فيها .. « فلما إنسدل جنح الظلام، وانتصفت من غريم العشاء فريضة السلام ، وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتى دنو الجلسة ، سارقة الخلسة ، ثم عضة النهد ، وقبلة الفم والخد ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد » ويتاكل نفوذ لسان الدين الخطيب ، وتحرق كتبه فى ساحة غرناطة ، ويتهم بالزندقة ، فيلجأ الى فاس بعد أن يبعث رسالة شديدة اللهجة الى السلطان ، يدين فيها أعماله السياسية ، ويعكف فى فاس على البحث والتأليف .

وتنتهى محنته ويدفع حياته ثمنا لحريته وتظل محنة المفكر مع المجتمع قائمة .

وهكذا لقى صديق ابن خلدون حتفه ، عام ٧٧٦ هـ ونتلمس فى سيرة ابن خلدون الذاتية ، مدى تأثير مأساة صديقه ، فيما اتخذه بعدها من قرارات والتى كان أبرزها ، انقطاعه للعلم وابتعاده عن الحياة السياسية .

ويمكن إجمال هذه المرحلة من حياته على النحو التالى ..

قضى ابن خلدون فى المغرب الاقصى ثمانى سنين ، قضى منها فى سجن فاس نحو عامين ، ونحو ستة أعوام الى جانب ثلاثة أمراء ووزيرين .

أبو سالم بفاس وقد تولى فى عهده كتابة السر والانشاء والمراسيم ، ثم عمل مع عمر بن عبد الله بفاس فى ذات الوظائف السابقة .

حمل ابن خلدون خلال عمله العام ، قلق المفكر ، ورفضه للكثير من الأعمال السائدة ، وقد أخذ يردد فى سيرته الذاتية كثيرا رغبته فى التفرغ لكتبه وأوراقه ويعرض العديد من محاولاته فى هذا المجال ، يقول : « نزعت عن غواية الرتب ، وطال على اغفال العلم، فاعرضت عن الخوض فى أحوال الملوك وبعثت المهمة على المطالعة والتدريس .

فكان يرى فى المعارف شرطا هاما لانجاز الأعمال الاجتماعية والسياسية فى خدمة المجتمع ، ويرى فى العلم وسيلة ضرورية للتنظيم الذى يسبغ على السياسة خبرته ومعرفته ، وفى ظنى أن اعدام لسان الدين الخطيب كان نقطة تحول أساسية فى حياته ، فبدأ يكثر الحديث عن زهده فى الوظيفة « متفادياً عن تجشم أهوالها » وزادت حاجته للانسحاب من ميدان السياسة ، والبعد عن دسائس رجال البلاط والتى وقع ضحيتها مراراً ، مما كان يستنزف قواه .

● مكيافيللى وابن خلدون

ويعتبر الكثيرون أن ثمـــة تشابها بين ابــن خلـدون ومكيافيللى ..

رغم أن ابن خلدون قد ظهر قبل مكيافيللى بأكثر من قرن من الزمان .. إلا أن كل منهما أتقن اللعبة السياسية المعقدة ، ولم توصل هذه اللعبة أيا منهما الى مقصده ، ويقدم ابن خلدون نفسه فى « التعريف » كمتكبر معتد بنفسه يريد أن يفهم الناس عنه ، أن فاجعة ما لم تزلزل فؤاده .

ويصل التشابه الى التطابق أحيانا ، ففى المرحلة الأولى من حياتهما ينغمس كلاهما فى العمل فى بلاط القصور ، ويعمل كل منهما مبعوثا دبلوماسيا يوفد اميره فى سفارات الى الخارج وكلاهما قضى النصف الثانى من حياته منكبا على الدراسة والبحث ، وكلاهما مر بتجارب تخلع القلب ، فعاصر ابن خلدون مأساة الوزير لسان الدين الخطيب الذى اتهم بالهرطقة نتيجة صراعاته السياسية ولقى مصرعه وأحرق جثمانه .. وعاش ميكافيللى مأساة المصلح الدينى سافونا رولا الذى أعدم حرقاً فى فلورنسا بالتهمة ذاتها .

وكلاهما ترك وراءه عملاً فكريا هاما .

● الانقطاع للعلم

ها هو ذا ابن خلدون يصمم على العزلة والبحث ..

وينجح فى المرة الأولى فى الاعتزال فى رباط أبى مدين ، ويذكر.. « أقمت فى تلك الليلة فى الاعتقال فى تلمسان ، ثم أطلقنى من الغد ونزمار بن عريف ، فعمدت الى رباط الشيخ

الولى أبى مدين ونزلت بجواره مؤثرا التخلى والانقطاع للعلم لو تركت له » .

ومرة أخرى يخرجه الصراع القائم من عزلته .. « فاستدعانى السلطان من خلوتى ، بعد أن أخذت فى تدريس العلم ، واعتزمت على الانقطاع ، فآنسنى ، وقربنى ، ودعانى .. فلم يسعنى الا اجابته » ثم أصبح موضع ريبة من أمرائها جميعاً ، فترك أسرته بفاس وغادر المغرب الى تلمسان وعكف فى قلعة ابن سلامة فى وهـران بالجزائر .. للقراءة والتأليف ، ونجح أخيراً فى تحقيق عزلته ، وانتزاع نفسه من الدوامة التى كانت تشده .

ويذكر ابن خلدون : « وأنزلونى بأهلى فى قلعة ابن سلامة.. فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها ، وشرعت فى التأليف .. » وكان وقتها فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، ونعم بالهدوء والاستقرار ، وكتب كتابه العبر ، الذى قدم له ببحث عام فى العمران البشرى الذى اشتهر باسم « مقدمة ابن خلدون » والتى استغرق فى كتابتها بدون مصادر خمسة شهور ، مما جعله يغادر صومعته الى تونس ، يذكر : « رجعت الى تونس ، وأويت الى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته ، وبحثت عن الأهل والولد وجمعت شملهم فى مرعى تلك النعمة .. والقيت عصا التسيار »

واذا كـان ابن خلدون قد تخلى عن العمل مع الأمراء والسلاطين ، فلم يتخل الامراء والسلاطين عنه ، واذا كان قد قضى ثمانى سنوات متفرغاً للقراءة والكتابة ، منها أربع سنوات فى قلعة ابن سلامه ، وأربع سنوات أخرى فى تونس ، فحان له الرحيل فلم تعد ذرائعه كافية ، وها هو السلطان بعد أن صحب ابن خلدون فى احدى حملاته الحربية الى الجنوب يلح عليه لمصاحبته فى حملة أخرى الى الزاب ..

ويتوسل للسلطان أن يخلى سبيله لقضاء فريضة الحج ، « فأذن لى وخرجت الى المرسى ، والناس يتساءلون على أثرى من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم .. »

وتبدأ مرحلة جديدة هامة فى حياة ابن خلدون ، عندما يقصد الى القاهرة مركز الفكر فى المشرق والمغرب ويقيم فيها أربعة وعشرين عاماً وينسج حياة جديدة ، نصحبه خلالها .

● حياة ابن خلدون فى مصر

يلاحظ من يقرأ السيرة الذاتية للمفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، أن حياته تنقسم إلى مرحلتين ، المرحلة الأولى قبل وصوله إلى مصر ، والمرحلة الثانية بعد وصوله إليها ..

يروى فى المرحلة الأولى ، أصله ونسبه وأساتذته ، والكتب التى قرأها ، والوظائف التى شغلها ، واعتزاله وتأليفه سفره العظيم كتاب « العبر » ، وهو ما استعرضناه ..

ويصل للمرحلة الثانية عندما يروى قصة رحيله إلى مصر عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م ، التى قضى فيها ما تبقى من حياته، وخاض فيها تجاربه الجديدة ، فأضاف ونقح كتابه « العبر » ، وخط كتاب « التعريف » فى ضيعته بالفيوم ..

غادر ابن خلدون المغرب وتوجه إلى مصر ، هربا من السياسة ، ومن أجل التفرغ للعلم والدراسة ، ولكنه بعد وصوله إلى القاهرة أنغمس لا فى السياسة وحدها ، بل فى المناورات والمنازعات بين الأمراء والسلاطين ..

ولم يستطع ابن خلدون طوال حياته ، الإفلات من تأثير قوتين متضادتين ، ولعه بالدرس والعلم من جانب ، وحبه للمنصب والجاه من جانب آخر ، بدأ حياته دارسا ثم انتقل إلى العمل والسياسة ، ووصل إلى أعلى المناصب ، ولم يستطع التخلى عن العلم ، فكان يعمل فى تدبير الملك صباحا ويلقى محاضراته عندما يأتى المساء ، ولا نجده يذكر فى سيرته الذاتية انهماكه فى شئون الحكم إلا ويعقبها بذكر حنينه إلى الاعتزال وطلب العلم ، حتى أنه كرر ذلك سبع مرات وهو يروى سيرته الذاتية .. !

ربما كان ذلك بسبب شغفه الشديد بمعرفة تفاصيل اللعبة السياسية ، التى لا يعرفها إلا من كان فى قلبها ، وجاء تنوع تجاربه من خلال عمله السياسى وطبيعة حياته الصاخبة ، والتى استخرج من رحيقها سفره القيم .. وربما انتقل اليه

الحنين للعلم والسياسة ، من عائلته التى كانت تتقلب حسب قوله .. « بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية » ..

ولكن المؤكد أن تجاربه السياسية التى عاشها ، هى التى أمدته بتلك الواقعية التى اتسمت بها مؤلفاته ، وأنها السر وراء وصوله إلى تلك المعادلة الصحيحة بين الوقائع والأفكار ، بين الواقعية والمثالية ، بين الواقع والخيال ، فكتب أهم ما جاء فى التراث العربى ، وجعلته تجربته العملية يرى الواقع وينفذ منه إلى حركة المجتمع وتاريخ المجتمعات البشرية ، فجاء هذا الفكر الخلاق الذى قدمه .

وكتب تلك العبارة النافذة .. « إن المنطق القديم لا يطابق الحياة الواقعية ، وأن الواجب يقضى على من يريد فهم الحياة الحقيقية أن ينظر إليها حسب منطقها .. » ، وكان يخط بهذا القول منهجا جديدا ، لا يكاد يعرف فى العصور الوسطى ، وانقضت قرون حتى يسود فى العصر الحديث ، وهذا ما جعل مؤرخا مثل أرنولد توينبى يقول : « إن ابن خلدون آخر نجوم المؤرخين ، فقد صاغ فلسفة للتاريخ ، هى بلا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أى عقل فى أى عصر .. » ..

ومازال الفرق بين النظرية والتطبيق أحد أسباب عجز الكثير من المفكرين ، الذين يهملون الواقع ويحلقون فى نظريات مجردة ، ويتضح ذلك أكثر ما يكون فى الحياة اليومية، فإذا طلب صديق أو قريب نصيحة أحد المفكرين ، تأتى هذه

النصيحة عملية مكتسبة من خبرة الحياة ، أما ما يعلنه ذات المفكر فوق المنابر العامة فيقتصر غالبا على الأفكار التى لا صلة لها بواقع الحياة ، ولكن مفكرنا قدم فكرا عمليا يقترن بموقف نقدى ، يفحص الأخبار فى معزل عن الأفكار ، حتى وجد من يقيم افكاره بأنها « منحرفة عن شرعة الأخلاق » ، وجعل سيريان Syrien يبدى دهشته بقوله : « إن سيرته الذاتية تمتلىء بالمتناقضات التى تعود إلى العبقرية المزدوجة ، فمؤلف تلك الأسفار العظيمة ، لا يزال لغزا ، بسبب الفارق بين عقائده وسلوكه ، والتباين بين نظرته للمصلحة العامة وأنانيته الظاهرة ، والتناقض بين عدم تحيزه فى البحث والعلم وتفضيل نفسه على الآخرين ، مما جعل تقييم سيرته الذاتية مهمة صعبة !

فهل هذه الصعوبة هى التى جعلت أغلب الأبحاث حول أعمال ابن خلدون تتناول مقدمته وكتابه « العبر » ، وتتجنب كتاب «التعريف» الذى يروى فيه سيرته الذاتية .. ؟

● أبعد من الخيال ..

ولنصحبه وهو يروى رحلته الغنية بالتجارب إلى مصر ، ونتأمل وقائعها ، وأثرها فى كتابات عصره ، لعلنا نحل اللغز الذى ظهر لسيريان عن قراءته سيرة ابن خلدون الذاتية ..

جذبت القاهرة ابن خلدون ، لأنها عاصمة الفكر والثقافة ، وأجمل عواصم الشرق عمارة ، وهى مقر الخلافة الاسلامية ، وموطن الأزهر الشريف ، وعاصمة اكثر الدول الاسلامية ازدهارا ، وأشهرها تجارة وصناعة ، وقلعة الجهاد التى رد جيشها عن أرض العرب والاسلام ، الصليبيين والتتار ..

وكان الإطار السياسى فى مصر مشحونا بالعوامل التى لم تعرض له من قبل فى المغرب ، فلا تحكمها قبائل متنازعة كما عاش خلال تجربته الأولى ..

ولندع ابن خلدون يصف لنا القاهرة ، يقول · « رأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشـر الأمم ، ومدرج الذر (النمل) من البشر وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والدواوين فى جوه ، وتزهو الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه ..

ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ، ومازلنا نتحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران ، واتساع الأحوال .

ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجبهم وتاجرهم ، بالحديث .. سألت صاحبنا قاضى

الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرى ، كيف هذه القاهرة ؟

قال : « من لم يرها لم يعرف عز الاسلام .. » ، وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية قال : « كأنما انطلق أهله من الحساب » ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب .

وسأل الفقيه الكاتب أبو القاسم البرعى فقال : « إن الذى يتخيله الانسان فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها .. »

هكذا كانت صورة القاهرة قبل أن يصلها ، وعندما وصلها كان فى الثانية والخمسين من عمره ، وسبقه اليها سفره العظيم «العبر»، وذاع صيته ، واحتفت به القاهرة واندمج سريعا فى نسيج حياتها ، وأصهر بعد المأساة التى وقعت لأسرته من إحدى عائلاتها ، وأقام بها أربعة وعشرين عاما وحتى آخر أيام حياته ، وسكن على النيل ، وكتب سيرته الذاتية فى ضيعته بالفيوم المهداة إليه من السلطان برقوق ويصف لنا استقبال القاهرة له بقوله : « ولما دخلتها أقمت أياما ، وانثال علىّ طلبة العلم بها ، يلتمسون الافادة مع قلة البضـاعة ، ولم يوسعونى عذرا ، فجلسـت للتدريس بالجامع الأزهر ، ..

ويسجل معاصروه من علماء القاهرة انطباعهم عنه :

● ويذكر تقى الدين المقريزى .. « قدم فى شهر رمضان سنة ٨٧٤ هـ ، شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون من بلاد المغرب ، وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ، فاقبل الناس عليه وأعجبوا به » ..

● يقول لنا ابن حجر العسقلانى .. « كان لسنا فصيحا ، حسن الترسل وسط النظم ، مع معرفة تامة بما يتحدث فيه » ..

● ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى .. « واستوطن القاهرة ، وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد » ..

● العالم والسلطان !

كان ابن خلدون يجيد التعامل مع الحكام ، ويعرف كيف يؤثر عليهم عند لقائهم ، فهو حسن الصورة ، بارع الحديث ، يملك لباقة ومعرفة واسعة ، يحسن عرض معارفه ومواهبه ، وكانت شخصيته الجسورة تجذب إليه السلاطين والأمراء ، وسبق له ونجح مع العديد منهم ، عندما التقى ببدرو ملك قشتالة ، وعندما التقى بالسلطان برقوق ، وعندما التقى بتيمورلنك فى مرحلة لاحقة ..

فماذا كان بين العالم ابن خلدون والسلطان برقوق .. ؟

إنه يعـرف كل التفاصيل عن طبيعة الحكم الذى يتعامل معه ، سلبياته وإيجابيته ، يتوق الحاكم ليسمع منه مصائر الدول ومصارعها ، أسباب قوة الحاكم ، وضعفه ، ولا يخرج ما قـاله للسـلطان عن حكم المـماليك عما سـطره فى كتـابه « التعريف » .. يقول : أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء فى التخلق بآداب الصوفية السنية ، وفى مطارحة الأفكار ونوافل الصلوات ، أخذوا ذلك عمن قبلهم من الدول الخلافية (الخلافة) ، فيختطون مبانيها ، ويقفون الأراضى المغلة للانفاق منها على طلبة العلم ، ومتدربى الفقراء ، وإن استفضل الريع شيئا عن ذلك ، جعلوه فى أعقابهم خوفا على الذرية الضعاف من العيلة (الفقر) ، واقتدى بسنتهم فى ذلك من تحت أيديهم من أهالى الرياسة والثروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية ، وكان ذاك من محاسن هذه الدولة التركية ، وأثارها الجميلة الخالدة » ..

وكان لديه الكثير ليقوله للسلطان فقد وصل إلى القاهرة بعد أن تولى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بحوالى عشرة أيام ، والذى وصل إلى أريكة الحكم بعد صراع مرير ، وعبر موجة من المؤامرات وعمليات القتل والخنق والسجن والإبعاد ، وخاض طريقا طويلا ، بدأ كأحد المماليك فى القاعدة حتى

وصــل إلى القمة ، وكان آخر ما وصــــل إليه اتابكا للعســكر (قائدا) ومديرا للسلطنة ..

« ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبر اللقاء ، وآنس الغربة ، ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم .. » .

هذا ما ذكره ابن خلدون عن لقائه بالسلطان برقوق ، ومنه نتبين أن أول لقاء ، نتج عنه علاقة حميمة دامت حتى آخر أيام السلطان ، بعد أن ترك انطباعا لدى السلطان بعقليته الفريدة ، ومعارفه الواسعة وفهمه لشئون الدولة ، وسانده بعدها السلطان فى كل أعماله ، وأصبح له حاميا ونصيرا ..

حتى أن السلطان كتب رسالة إلى سلطان المغرب ، يطلب فيها السماح لأسرة ابن خلدون بالقدوم إلى القاهرة ، سجل نصها ابن خلدون ، وجاء فيها .. « لقد أثر ابن خلدون الإقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحببا الينا وتقربا إلى خواطرنا بالجواهر النفيسة من ذاته الحسنة ، وصفاته الجميلة » ..

ومنذ هذا اللقـــاء ، وابن خلدون يشارك فى حياة مصر السياسية ..

● العالم الفقيه ..

أشبع ابن خلدون حبه للمعرفة بالتردد على مخازن الكتب العديدة فى القاهرة ، والتفاف عدد من التلاميذ حوله ، ولقاء

العلماء وإلقاء المحاضرات فى مدارسها ، فعلاوة على إلقاء الدروس فى الأزهر الشريف ، عين أستاذا فى المدرسة القمحية بالفسطاط ، ويذكر درسه الأول الذى كان فى موضوع بالغ الدلالة وهو « دور العلماء فى الدولة » ، ويقول فى ختام المحاضرة .. « شيعتنى العيون بالتجلة والوقار ، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب (!) » ، وقيل « محاضراته إليها المنتهى » ، ثم انتقل للتدريس بعدها فى المدرسة الظاهرية فى بين القصرين بحى الجمالية ، وعقب عودته من الحج عين شيخا للحديث فى مدرسة صرغتمش ، وترك كوكبة من التلاميذ على رأسهم تقى الدين المقريزى ، الذى تمثل فيه وفاء التلميذ لأستاذه ، فكان يلقبه شيخنا العالم العلامة ، شيخ الفقهاء ، « وصل إلى مرتبة .. لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ، وبهجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث ، والأنبـاء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدرر النظيم ، وألطف من الماء مر به النسيم » .

ومن جانب آخر أحنق عليه المدرسة المحافظة ، وأثارت دروسه وأفكاره الجدل ، واتهمته هذه المدرسة بكل نقيصة !

● قاضى القضاة

فإذا كان ابن خلدون أشبع حبه للعلم والدرس ، فحان ظهور ولعه بالمناصب والجاه ، وها هو يتولى منصب قاضى قضــاة المالكية، ولم يمض على وجوده فى القاهرة سوى عامين، وهو منصب له أهمية بالغة ، وهو واحد من أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعــة ، وإذا كان منصب القــاضى فى عصر فصل الســلطات لا صلة له بالسياسة ، فإنه فى عصر ابن خلدون أحد المناصب السياسية الهامة ، فالقضاة يفتون فى القضايا الهامة ، ويستشيرهم السلطان فى أمور الحكم ، ويتمتع القاضى بنفوذ كبير، لا يقل عن الأمراء المتنازعين فى ظل الوضع القبلى فى المغرب .

ويمكن تلمس مظاهر الجاه للقاضى فى تفاصيل صغيرة سجلها المؤرخون ، مثل عدم جواز سير القاضى على أقدامه ، وكانت بغلة من نوع خاص هى مطية القاضى ، رمادية اللون ، غالية الثمن ، يوازى ثمنها أفضل الجياد ، ولا يسمح لغير القاضى بركوب ذات اللون ، وتمنح للقاضى من السلطان عند تعيينه .

لذلك فالصراع الذى يدور حول منصب القاضى هو أشد الصراعات السياسية ضراوة ، وتحفل سيرة ابن خلدون الذاتية بالصراعات التى دارت ، حتى أن مؤرخنا تقلد هذا المنصب وعزل منه ست مرات ، وتوفى بعد ولايته السادسة بأيام قليلة .

ويحكى لنا تعيينه فى منصب القاضى بقوله . « وبينما أنا فى ذلك (يقصد التدريس فى المدرسة القمحية) ، إذ سخط السلطان (على) قاضى المالكية فى دولته لبعض النزاعات فعزله .. اختصنى السلطان بهذه الولاية تأهيلا لمكانى وتنويها بذكرى ، وشافهته بالتفادى من ذلك ، فأبى إلا إمضاءه ، وخلع علىّ بايوانه ، وبعث من كبار الخاصة من أقعدنى بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية .. »

ويروى ابن حجر العسقلانى فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » قصة توليه القضاء بقوله : « لما دخل الديار المصرية ، تلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتودد له والتردد إليه ، فلما ولى المنصب تنكر لهم ، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين ، والشهود ، فقد ... « لازم أبطنغا الجوبانى (أحد أمراء المماليك) فاعتنى به، إلى أن قرره الملك الظاهر برقوق فى قضاء المالكية ، فباشره مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر الجن ، وصار يغرر بالصفع ويسميه « الزج » ، فإذا غضب على إنسان قال « زجوه » فيدفع حتى تحمر رقبته » الى أن يقول : « لم يغير زيه المغربى ولم يلبس زى قضاة هذه البلاد ، وكان يحب المخالفة فى كل شىء »

أما ابو المحاسن ابن تغرى بردى فله رأى آخر « ابن خالدون عمل على تحقيق العدل ، وواجه الكبير قبل الصغير ... باشره بحرمة وافرة ، وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ، ورفع

رسائل أكابر الدولة وشناعات الأعيان ... وكان صارما للغاية ، وقد أنكر تدخل الشخصيات الهامة ، ورفض الرشوة ، فشهروا به عند السلطان فعزله .. »

وسجل لنا ابن خلدون تجربته فى القضاء بقوله : « قمت بما دفع السلطان إلىّ من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله ، لا تأخذنى فى الحق لومة ، ولا يزعنى عنه جاه ولا سطوة ، مسويا فى ذلك بين الخصمين ، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ، جانحا إلى التثبت فى سماع البيانات والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ، فقد كان البر فيها مختلطا بالفاجر ، والطيب ملتبسا بالخبيث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم ، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة ، فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلمون للقرآن ، وأئمة فى الصلوات ، بلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ، ويقسمون لهم الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم ، فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال ..... وكان منهم كتاب لدواوين القضاة والنوقيع فى مجالسهم ، وقد دربوا على إملاء الدعاوى، ونسجيل (الأحكام) ، واستخدموا للأمراء فيما

يعرض لهم من العقود ، بأحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ، فصار لهم الفضل بذلك على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم ، يذرعون به مما يتوقعونه من عتبهم لتعرضهم لذلك بفعلاتهم ، وقد يسلط بعض منهم قلمه على العقود المحكمة ، فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهى أو كتابى ، ويبادر إلى ذلك متى دعا اليه داعى جاه أو منحة ، وخصوصا فى الأوقاف التى جاوزت حدود النهاية فى هذا المصر بكثرة عوالمه ، فأصبحت خافية الشهرة ، ومجهولة الأعيان ، عرضة للبطلان ، باختلاف المذاهب المنسوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعا أو تمليكا ، شارطوه وأجابوه ، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دون سد الحظر والمنع حماية عند التلاعب ، وفش فى ذلك الضرر فى الأوقاف ، وطرق الغرر فى العقود والأملاك .. فعاملت الله فى حسم ذلك بما أسفهم وأحقدهم ... وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل ، ورددتهم علىٍ أعقابهم .. فأرغمهم ذلك منى ، وملأهم حقدا وحسدا عليّ ... ولم يكن ذلك شأن من رافقتهم من القضاة ، فنكروه عليّ ، وعدونى إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر ، ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة أو دفع الخصوم إذا تعذرت ، فأبيت فى ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها ، والوفاء لها ومن قلدنيها ، فأصبح الجميع على ألبا .. وفى النكير على أمة .. وانطلقت الالسنة ، وارتفع الصخب ... فكثر الشغب عليّ من كل جانب ، وأظلم الجو بينى

وبين أهل الدولة ، ... واعتزمت الخروج من المنصب ، فلم يوافقنى عليه النصيح ممن استشرته ، خشية من نكير السلطان وسخطه » .

ولعلى أطلت فى الاستشهاد بما جاء على لسان ابن خلدون، ولكن ألم تلحظ عزيزى القارىء أن تلك الأساليب التى سجل بعضها مفكرنا تتوالى على مر العصور .

● محـنة !

عندما ينشب صراع فى قمة السلطة ، فما الذى على العالم والمفكر أن يفعله ، ومع من يقف فى الصراع ؟ مع الحق أم مع المنتصر ؟ كانت هذه هى المحنة التى واجهت ابن خلدون خلال حياته فى القاهرة .

وقع ذلك عندما نجحت إحدى المؤامرات ضد السلطان ، وأمكن خلع السلطان برقوق من منصبه ، وقاد هذه المؤامرة يلبغا الناصرى فى ٥ جمادى الثانى عام ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م ، وطلب السلطان برقوق من الناصرى الأمان وسلمه شعائر السلطة ، ونفى الى قلعة فى دمشق .

ولم يكن ذلك سوى أحد فصول الصراع على السلطة بين أمراء المماليك ، وسرعان ما فر السلطان برقوق فى جنح الظلام من القلعة، وتجمع حوله الانصار ، وتوجه إلى القاهرة لاسترداد عرشه، وقامت الاستعدادات لمواجهته ، وعزم

الاتابكى منطاش على الخروج لمقاتلته ، وجمع منطاش مجلسا يضم الخليفة والقضاة الأربعة وعددا من العلماء ، بينهم ابن خلدون ، وطلب اليهم إصدار فتوى بشرعية مقاتلة برقوق وقواته ، ورغم أن ابن خلدون تربطه صلات حميمة بالسلطان برقوق ، فإنه وقع الفتوى ، فإذا كان يؤمن بمثالية الاهداف فهو يؤمن أيضا بواقعية الوسائل ، ويرى أمامه شمس الدين محمد الركراكى يرفض توقيع الفتوى فيودع فى سجن القلعة ، وربما تذكر ما وقع لصديقه لسان الدين الخطيب الذى أعدم وشوهت جثته ثمنا لموقفه المعارض ..

وتدور الدوائر وينتصر جيش السلطان برقوق ويهزم جيش منطاش ويعود برقوق إلى أريكة السلطنة ويعين الركراكى قاضيا لقضاة المالكية ويعزل ابن خلدون من الخانقاة البيبرسية .

ويذكر ابن خلدون هذه الواقعة فى سيرته الذاتية ، ولكنه يؤكد أن خصومه كانوا وراء عزله من منصبه .... يقول « أعد الظاهر برقوق السير إلى مصر ، وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره ... ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه ، وولى سودون على نيابته ، وكان ناظرا للخانقاه التى كنت فيها ، وكان ينقم على أحوالا من معاصاته فيما يريد من الأحكام فى القضاء أزمان كنت عليه ... وكان الظاهر ينقم علبنا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش ، واكرهنا على كتابتها

فكتبنـاها ، وورينا فيها بما قدرنا عليه ، ولم يقبل السلطان ذلك ، وعقب عليه وخصوصا عليّ ، فصادف سودون منه إجابة فـي إخراج الخانقـاه عني ، فولى فيـهـا غيرى وعزلنى عنها .. !! ، وكتبت إلى الجويانى بأبيات اعتذر عن ذلك ليطالعه بها فتغافل عنهـا ، وأعرض عنى مـدة ، ثم عـاد (السلطان) إلى ما أعرف من رضاه واحسانه » .

وهو هنا يروى تفاصيل القصة بوضوح ، أى يدافع عن واقعيته فى التعامل مع الأحداث السياسية التى اعترضته ، ولا يرى فيما قام به ما هو مشين ، ولا يرائى فيما فعل ولا يعتذر عنه ، بل ويقول بصراحة ... « إن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتملق .. » !

● العـالم والغازى : لقاء ابن خلدون وتيمورلنك

ونمضى مع العلامة ابن خلدون وهو يروى سيرته الذاتية .. نتوقف عند ذلك اللقاء التاريخى الذى جرى فى ظروف بالغة الدقة ، على مشارف دمشق ، فى صدام أقدار وسط أحد الصراعات التاريخية الكبرى ، ومع صليل السيوف وبين المعارك الضارية ..

جمع اللقاء بين أكبر علماء العصر ، وأكبر قادته العسكريين العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، والغازى تيمورلنك .

يتعرف كل منهما على صاحبة ، ويرى كل طرف لدى الآخر ما يقدمه ، يلتقى القلم والسيف ، المعرفة والقوة ، العلم والدهاء ، يأمل ابن خلدون - وهو المؤرخ في التعرف على هذه الشخصية التى أذهلت العالم ، ويحلم تيمور أن يصل بسيفه وفرسه الى آخر الدنيا .

فهل يقربه ابن خلدون بمعرفته من غايته .. ؟ !

روى لنا ابن خلدون فى كتابه « التعريف » ، كيف هيأت له اقامته فى مصر التى استمرت أربعة وعشرين عاماً ، ثلاث رحلات هامة ، مرة ليؤدى فريضة الحج ، ومرة أخرى لزيارة فلسطين والتجول فى القدس ، والثالثة فى صحبة السلطان فرج الى دمشق للدفاع عن المدينة أمام تهديدات قوات تيمورلنك .

وسنتناول رحلته الى دمشق ، وما حفلت به من مغامرات سياسية ، والتى وصفها ابن خلدون وصفا حيا مستفيضا ، لا ينقصه الصراحة والوضوح ، ومدخلنا الى هذه الرحلة السياق الذى تمت فيه ، والذى مهد للقاء عالمنا بذلك الغازى المندفع من سهول آسيا .

لم تكن هذه الموجة العاتية التى قادها تيمور ، هى الموجة الأولى، فقد سبق وصدت القوات المصرية الموجة التترية الأولى فى موقعة « عين جالوت » ، بعد أن اجتاحت أمامها كل شيء ،

أسقطت الخلافة العباسية ، واستولى هولاكو على العاصمة بغداد ، وجرت الدماء انهارا ..

ولم يمض وقت طويل وبدأت الموجة التالية التى يقودها نجم بازغ هو تيمورلنك الذى أقام دولة قوية عاصمتها سمرقند ، وأخذ يشعل الحرب سنويا ، وفى كل مرة يقضم مملكة أو أمارة من حوله، ووصل بقواته من موسكو الى نهر الكنج ، واستولى مرة أخرى على بغداد ، وأرسل رسله الى القاهرة ، الا أن السلطان الظاهر برقوق، عمل ما سبق وقام به سلفه الظاهر بيبرس ، وأعدم رسل تيمور رافضا التهديدات التى حملوها ، وقاد قواته متوجها الى الشام لمواجهة حملة تيمور ، وسرعان ما غير تيمور اتجاه حملته وتوجه بها الى الهند .

وعندما علم بوفاة السلطان برقوق ، عاد وتوجه الى الشام ، ويذكر ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة .. « بلغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق صاحب مصر ، فكاد يطير بموته فرحا » . ويذكر السخاوى فى الضوء اللامع .. « لما بلغ تيمور موت الظاهر برقوق ، فرح وأعطى من بشره خمسة عشر ألف دينار ، وتهيأ للسير إلى بلاد الشام » .

وكتب على مؤرخنا ابن خلدون أن يشهد تلك الأحداث الجسام ، وأن يسجل وقائعها ، ولم يعد مؤرخ المغرب والاندلس فحسب ، بل ومؤرخ المشرق العربى أيضا .

● سقوط حلب

كانت القاهرة ترقب زحف تيمور وانتصاراته بحذر بعد فقدان سلطانها ، وتعيش مخاطر انتقال السلطة فى ظل أمراء المماليك المتنازعين ، وتولى السلطنة فرج بن برقوق وهو مازال طفلا صغيرا، وحين تصل حملة تيمور إلى مدينة حلب ، بعد أن أخضعت كلا من فارس والعراق ، وبعد أن قضت الحملة على الحشاشين فى مذبحة رهيبة ، يصل تيمور الى حلب وقد زين تاجه بأكثر من مملكة غنية ذات تاريخ قـديم ، واستمر ظمؤه للقتال لم يخمد ، وتتحرك قوات المماليك يقودها السـلطان فرج ، ويصحب السلطان - كعادة ذلك الزمـان - الخليفـة والعلماء والقضـاة ومن بينهم عالمنـا ابن خلدون ..

ويستعرض ابن خلدون جيش تيمور بقوله : « القوم فى عدد لا يسعه الاحصاء ، إن قدرته الف الف ، فغير كثير ، ولا تقل انقص ، وإن خيموا فى الأرض ملأوا الساح ، وإن سارت كتائبهم فى الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء ، وهم فى الغـارة والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادى الاعراب » .

ويروى لنا « وساد العبث والنهب والمصادرة ، واستباحة الحرم بما لم يعهد الناس مثله . » .

● حول دمشق

وتحركت قوات تيمور بعد تدمير حلب الى دمشق عن طريق حمص وبعلبك ، وتحركت قوات السلطان الناصر فرج للدفاع عن دمشق .

ويسجل لنا ابن خلدون السجال الذى وقع بين الفريقين ، ففى ذات اليوم الذى وصل فيه السلطان ، دحر مائة فارس مصرى ألف جندى من طلائع جيش تيمور ، ويذكر شرف الدين اليزدى مؤرخ بلاط تيمور .. « أن الخيالة المصرية كانت أحسن خيالة العالم » . وفرت جماعة من جيش تيمور ولجأت الى السلطان فرج ، واخبروه بنقاط الضعف فى قواتهم ، وكان بينهم حفيد تيمور سلطان حسين، وبعد فترة وجيزة من الاشتباكات عرض تيمور الصلح والانسحاب ، وأطلاق الاسرى وطلب الافراج عن أحد أمرائه المسمى أطلمش وهو زوج ابنة تيمور الذى سبق ان خطف وأسر وسلم للسلطان فى القاهرة .

وخلال الاستعدادات للدخول فى معركة فاصلة ، وردت لسلطان فرج انباء حول مؤامرة لخلعه تجرى فى القاهرة ، فعاد اليها مسرعا .

ويروى ابن اياس القصة بقوله : « حضر السلطان الى الديار المصرية على حين غفلة ، وحضر صحبة الخليفة المتوكل وجماعة من النواب ، وهم نائب الشام ونائب صفد ونائب غزة

وغالب أمراء دمشق ، وحضر مع السلطان من العسكر نحو الف مملوك وحضر مع كل امير مملوكان من مماليكهم ، وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش ، وكان سبب حضور السلطان على هـذا النحو ، أن عسكر السلطان بعد أن أوقع مع عسكر (تمرلنك) مرتين وهو ينكسر ارسل تمرلنك يطلب من السلطان الصلح ، وأرسل إلى السلطان اميرا من أمرائه يمشون بينه وبين السلطان في أمر الصلح ...

وبلغ السلطان في تلك الليلة ان العسكر تقلبوا عليه ، وهرب منهم جماعة من ، الأمراء تحت الليل .. فقام الأمراء على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا من دمشق قبل التسبيح .. وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا مصر ، لكي يسلطنوا الأمير لاجين الجركسي ، فلما تحقق الأمراء من ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا من دمشق » .

وهاهو السلطان يغادر دمشق بعد أن قاتل دفاعا عنها إسبوعين .

● أهالى الشام

وفجأة يلحظ اهل الشام انسحاب قوات المماليك ، ويتصورون أنها خطة مدبرة من اجل الالتفاف خلف خطوط تيمور ، ومالبثت الحقيقة ان ظهرت ، فالمدينة التاريخية بدون

حماية ، وحتى حاكم دمشق تغرى بردى - والد المؤرخ المعروف - رحل مع السلطان ، وبقى اربعة امراء وقواتهم محصنين فى القلعة ..

عندها لجأ أهالى دمشق الى الفقهاء والقضاة ، فاجتمع العلماء والفقهاء ، ومدينتهم تحت الحصار ، إذا اقتحمها تيمور حربا فيسفعل ما سبق وفعله فى حلب ، وجاء الفرج ، عندما نادى رسول تيمور تحت اسوار القلعة .. « الأمير يريد الاتفاق فابعثوا من يفاوضه » ، وانقسم أهل الشام ، ورفض الجنود فى القلعة اى صلح أو التفاض مع قوات العدو ، أما العلماء والفقهاء فقد قصدوا الغازى يطلبون الأمان لأهل دمشق .

وعندما قصدوا الخروج من باب النصر للمفاوضة ، منعهم جند القلعة ، فتدلوا من السور ، وفى هذه الظروف يبرز دور ابن خلدون على المسرح السياسى ، بعد أن تركه المماليك وراء هم .

وينقل لنا ابن خلدون ، صورة تاريخية حية تختلط فيها مشاعر الخوف والأمل . يقول : « وجاءنى القضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرسة العادلية ، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر (تيمور) على بيوتهم وحرمهم ، وشاوروا فى ذلك نائب القلعة ، فأبى عليهم ذلك ونكره ، فلم يوافقوه ، وخرج القاضى برهان الدين بن مفلح ومعه شيخ القراء ، فأجابهم الى التأمين ، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة ، فخرجوا اليه

متدلين من الســور ، فأحـسن (تيمور) لقاءهم ، وكتب لهم الرقاع بالامان ، وردهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد .. وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأل عني – والحديث مازال لابن خلدون -- وهل سافرت مع عساكر مصر ام اقمت بالمدينة ، فأخبره بمقامي في المدرسة حيث كنت ، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج اليه ، فحدث بين الناس تشاجر في المسجد الجامع (المسجد الأموى) وأنكر البعض ما حدث من الاستنامة الى القول (التخاذل) وبلغني الخبر في جوف الليل ، فخشيت البادرة على نفسي ، وبكرت سحرا الى جمـاعة القضاة ، عند الباب ، وطلبت الخـروج أو التدلي من السور .. »

وتدلى ابن خلدون بالحبل من السور ، بليل وهو كهل عجوز في السبعين من عمره في مغامرة سياسية محفوفة بالمخاطر ، يتنازعه الخوف على نفسه وعلى ابناء دمشق .

ويضيف ابن خلدون .. « فوجدت بطانته (بطانة تيمور) عند الباب ، ونائبه الذي عينه للولاية على دمشق واسمه شاه ملك ، فحييتهم وحيـوني وفديت وفدوني ، وقدم لي شـاه ملك مركوبـا (دابة) وبعث معي من بطانة السلطان من اوصلني اليه فلما وقفت بالباب خرج الاذن بإجلاسي في خيمة هناك تجاور خيمة جلوسة ..» « وزيد في التعريف باسمي ، بأني القاضي المالكي بي ، فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه

متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه ، ويشير بها الى عصب المغل جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا ، فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، وأوميت ايماءة الخضوع فرفع رأسه ومد يده الىّ فقبلتها وأشار بالجلوس حيث انتهيت ..

وظل هذا اللقاء محل جدل المؤرخين ، واعتبر البعض ما دار فيه دليل قدرة ابن خلدون وبراعته عندما أخرجته مهارته من المأزق الصعب الذى وجد نفسه فيه ، وأثار لدى البعض الأخر الشكوك ، والتساؤلات حول ما تم فيه ..

● الأثير الاعظم

يطلق ابن خلدون على تيمور كل انواع الالقاب فيسميه أميرا وسلطانا واحيانا يطلق عليه « الاثير الأعظم » وقد حرص على تقديم الهدايا ، فقدم لتيمور مصحفا رائعا وسجادة انيقة ، ونسخة من قصيدة البردة للبوصيرى ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة ، وزعها تيمور على جلسائه ، وبدأه ابن خلدون بالقول · ابدك الله ، لى اليوم ثلاثون أو اربعون سنة أتمنى لقاءك ، فقال المترجم عبد الجبار بن النعمان - صاحب تيمور وإمامه وعالمه ، الذى كان يتقن اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وما سبب ذلك .. ؟ قلت . أمران :

الأول : انك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما اعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ أدم لهذا العهد مثلك ، ولست ممن يقول الامور بالجزاف ، فإنى من أهل العلم .

وأما الأمر الثانى : ما كنت أسمعه كثيرا بالمغرب من الحدثان فى ظهوره - زحل والمشترى وكان المنجمون المتكلمون فى قرانات العلويين يترقبون القرآن العاشر فى المثلثة الهوائية - أى اتفاق ثلاثة بروج هى الجوزاء والميزان وبرج الدلو ، مما يدل على ترقب ظهور نجمه وكان يترقب عام ستة وستين من المائة السابعة ، فلقيت ذات يوم بجامع القرويين الخطيب أبا على بن باديس خطيب قسنطينة ، وكان ماهرا فى هذا الفن ، فسألته عن هذا القرآن المتوقع ، وما هى أثاره ؟ فقال لى يدل على ثائر عظيم فى الجانب الشمالى الشرقى من أمة بادية أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ويستولى على أكثر المعمور ، فقلت ومتى زمنه ، فقال عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره ، وكان شيخى أمام المعقولات محمد الأيلى متى فاوضته فى ذلك يقول ، أمره قريب ولابد لك أن عشت أن تراه .. »

وعالمنا هنا يدغدغ عواطف تيمور ، بطرق مختلفة ، فإذا لم تفلح معه الهدايا التى قدمها ، فلابد أن نفعل تلك النبوءة فعلها ، فى دغدغة عواطفه ، رغم أنه سبق وكتب فى تاريخه ، عن ظاهرة هؤلاء الاجلاف الذين خرجوا من سهول أسيا ، والذى يلعب التنجيم دورا رئيسيا فى حياتهم ، وكان له معرفة واسـعة بقبائل المغـــول وحروبهم ، مما سبق وذكره فى كتاب « العبر » المجلد الخامس ، فى اخبار التتر ، وتناول جنكيز

خان وأبنائه وأولى غزوات تيمور ، وهذا يعنى أن لديه معلومات تاريخية كاملة عن تيمور وقومه ، أحسن استخدامها خلال هذا اللقاء .

وتظهر من خلال اللقاء قدرته الكبيرة على التعامل مع الملوك والسلاطين والقادة والذى اكتسبه من سفاراته السابقة ، ولا يخفى ابن خلدون فى سيرته ان الوجل غلبه بما وقع من نكبة قاضى القضاة الشافعية صدر الدين المناوى .

ويورد ابن عربشاه هذه الواقعة التى تظهر الفارق بين حديث ابن خلدون وصدر الدين عند لقاء تيمور ، يقول : « وبينما هم يوما قاعدون فى حضرة ذلك البصير ، وإذا بالقاضى صدر الدين المناوى فى أيديهم أسير وكان قد تبع السلطان (فرج) فى الهرب، فأدركه فى ميسلون الطلب ، فقبضوا عليه ، وأحضروه بين يديه ، وإذا هو بعمامة بالبرج ، وأردان كالخرج ، فتخطى الرقاب ، وجلس من غير إذن فوق الاصحاب ، فاستشاط تيمور غضبا وملأ المجلس لهبا ، وانتفخ سحره ، وسجر غيظا نحره ، وشخر ونحر ، ومخر بحر حنقه وزخر ، وأمر طائفة من المعتدين بالتنكيل بالقاضى صدر الدين، فسحبوه سحب الكلاب ، ومزقوا ما عليه من ثياب ، وأوسعوه سبا وشتما ، وأشبعوه ركلا ولكما ، ثم امرهم بتشديد أسره ، وقد توفى بعدها خلال مصاحبتهم له أسيرا غريقا فى نهر الزاب .

● من الشهيد ؟

ويذكر ابن خلدون دون حرج « فزدت فى نفسى كلاما اخاطبه به، واتلطفه بتنظيم أحواله وملكه .. » فيعرف ابن خلدون جزاء من يتحدى سلطانه ، ويعرف ايضا مدى ضعفه أمام العلماء والفقهاء ، ويدرك قدرته على خلب لبه ، ويعرف ما دار بين تيمور والقضاة والفقهاء فى حلب من محاورات ومناظرات .

وهو يعرف ماذا جرى عندما سأل تيمور العلماء والفقهاء فى حلب ، قتل منا ومنكم أمس ، فأى الفريقين هم الشهداء ؟ قتلانا أم قتلاكم ؟ فأجاب أحد علماء حلب ، هذا سؤال سئل عنه النبى صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه عندما جاء اعرابى الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله إن الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل ليرى مكانه ، فأينا فى سبيل الله ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو شهيد .

فقال تيمور .. جيد .. جيد ..

ويعرف أنه عندما كان جنده ينهبون اصفهان نهاهم عن أن يتعرضوا بسوء للحى الذى يسكنه الفقهاء . وأنه يستهويه التفاف العلماء والفقهاء من حوله .

● تيمورلنك

وأن لنا أن نتوقف عند شخصية الغازى تيمورلنك ، والتى تبدو بعض ملامحها خلال حملته على الشام ، يصفه المؤرخون ، أنه كان متين البنيان ، منتصب القامة ، له صوت جهورى يطغى حتى على صليل السيوف فى المعارك ، وله ملامح آسيوية خالصة ، ولحية طويلة وغطاء رأس مغولى قلنسوة من الفراء مخروطية الشكل يعلوها ياقوتة على هيئة الكمثرى يحيط بها الجواهر والماس . خضعت نصف آسيا لسلطانه ، وأندفع قواته حتى وصلت داخل روسيا ووصلت الى موسكو وأضرمت فيها النيران عام ٧٨٩ هـ - ١٣٨٤ م .

ويتصور نفسه قرينا للاسكندر الأكبر وقيصر روما ..

فهل كان مجرد فاتح مثل هولاكو وجنكيزخان ، أم أن هناك مثلا عليا تحركه ، وهو القائل .. « أنه فى كل اقليم يسود الظلم ، فعلى الامير اجتثاثه ، وهذا دفعنى الى فتح خراسان ، والى تخليص فارس والعراق والشام من الفوضى التى كانت تسودها .. » فيدعى أنه مبعوث العناية الالهية لاصلاح العالم ..

وأذا تأملنا الفارق بين موجة التتار الأولى على الدولة الاسلامية ايام هولاكو ، وتلك التى قادها تيمور نجد وحدة قوات المماليك تحت قيادة الظاهر بيبرس فى مواجهة الخطر

على الوطن وعلى العقيدة وجاءت الموجة الثانية والمماليك متنازعون ، والغزاة الجدد يحملون راية الاسلام ، يقودهم من يدعى أنه يسعى لتوحيد عالم الاسلام تحت راية واحدة !

وينظر الترك الى تيمور على أنه سجل بداية تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ويمثل انتصار الترك على النظم المغولية والصينية، فكانت نظمه مزيجا من عادات القبائل التركية وما جاء به الاسلام ، وأنه استهدف توحيد الترك تحت زعامته ، وكانت اخطر معاركه مع آل عثمان .

وعندما قمت بجولة فى المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتى السابق فاجأتنى حركة احياء قوية لترك تيمورلنك كأحد الأبطال القوميين ، فيشكل الترك نسبة ٧٥ ٪ من سكانها ومازالت سمرقند وبخارى (كاش) تزدحم بالاثار المعمارية والحضارية التى تركها تيمورلنك .

وعند لقائى باساتذة المعهد العالى للامام البخارى فى طشقند ، كان يشغلهم اعادة كتابة تاريخ اسيا الوسطى ، واعادة الاعتبار لتيمورلنك ، الذى كان يهدف فى رأى اساتذة المعهد الى توحيد عالم الاسلام لمواجهة التحديات الأجنبية والذى كان يرى ان تنتقل قوة الاسلام العربية وما بقى من فروع الحضارة الاسلامية الى سهول تركستان ، وينقلون عنه قوله : « إذا كان هناك رب واحد ، فينبغى الا يوجد سوى سلطان واحد .. » !

ويورد ابن خلدون فى رسالته الى صاحب المغرب تقييمه الصادق لتيمور .. أى تقييم العالم لذلك الغازى ، يقول : « هذا الملك من زعماء الملوك وفراعنتهم ، الناس ينسبونه الى العلم ، وأخرون الى اعتقاد الرفض ، لما يرونه من تفضيله لأهل البيت ، وأخرون الى انتحال السحر ، وليس من ذلك كله فى شيء ، انما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم » .

● طنجة وسبتا

ونعود الى لقاء تيمور وأبن خلدون يقول ابن خلدون ..

وسألنى (تيمور) : من أين جئت من المغرب .. ؟ ولم جئت ؟

فقلت جئت لقضاء الفرض ، والمفرحات بأسوارهم (فى القاهرة) لجلوس الظاهر على تخت الملك .

فقال : وما فعل معك ، قلت : كل خير ..

فقال : وأين ولدك ؟ قلت : بالمغرب الجوانى .

فقال : ما معنى الجوانى فى وصف المغرب ؟ فقلت : معناه الداخلى أى الأبعد .

فقال : وأين مكان طنجة من هذا المغرب ؟ فقلت فى الزاوية بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق . فقال : وسبتة ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق ومنها التعدية الى الاندلس .

ويلاحظ اهتمام تيمور بكل من طنجة وسبتة بما لهم من قيمة اسـتراتيجية خاصة ، وهو الذى يداعب احلامه فتح العالم ..

ويكمـل ابن خلدون .. « ولم يكتف تمر بما قلته له شفويا .. وقال « أحب ان تكتب لى بلاد المغرب كلها ، أقاصيها وادانيها جباله وأنهاره وقراه وامصاره ، حتى كأنى أشاهده ، فقلت · يحصل ذلك .. وكتبت له بعد انصرافى من المجلس ما طلب وأوعيت العرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر اثنتى عشرة من الكراريس المنصفة القطع » .

وفقد مخطوط ابن خلدون عن المغرب ولعله لم يكتب سوى المعروف من المعلومات الجغرافية ، وهو يعرف أنه ضمن خطط تيمور اعداد حملة الى ساحل الاطلنطى وغزو المغرب ، وأنه استجاب لتيمور لكى يلتمس وسيلة للابتعاد ، ويعود الى مصر يواصـل البحث والتـدريس ، أو لعله استهدف العفو عن الاسرى ، وأن يؤمن اهالى دمشق ويجنبهم انتقام تيمور ..

وتتوالى اللقطات والمشاهد التاريخية التى وقعت بين ابن خلدون وتيمور ، ويسجل عالمنا ابن خلدون بعض المناظرات التى كان يديرها تيمور ، والتى تعكس ثقافة عصره ..

ومن هذه المحاورات ، قول تيمور لابن خلدون : أراك قد ذكرت بختنصر مع كسـرى ، وقيصر والاسـكندر ، ولم يكن

بختنصر فى عدادهم لأنهم ملوك أكابر ، وبختنصر قائد من قواد الفرس ..

وسأل : من أى الطوائف هو بختنصر .. ؟ فقلت : بين الناس فيه خلاف ، فقيل من النبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس الأولى .

فقال : يعنى من ولد منوشهر .

قلت : نعم هكذا ذكروا .

فقال : وأى القولين أرجح عندك . ؟

فقلت : إنه من عقبة ملوك بابل . فذهب إلى ترجيح القول الآخر.

فقلت : يعكر تملينا رأى الطبرى ، فإنه مؤرخ الأمة ومحدثهم ، ولا يرجحه غيره .

فقال : وما علينا من الطبرى ، نحضر كتب التاريخ للعرب والعجم ، ونناظرك .

فقلت : وأنا أيضا أناظر على رأى الطبرى ..

أما ما وقع مع ابن خلدون قبل الرحيل فيرويه قائلا .. « دخلت على تيمور فالتفت الىّ .

وقال : عندك بغلة هنا .

قلت : نعم

قال : حسنة .

قلت : نعم قال وتبيعها ؟ فأنا اشتريها .

فقلت : ايدك الله مثلي لا يبيع لمثلك وانما أنا اخدمك بها ، وبأمثالها لو كانت لي .

فقال : أردت أن أكافئك عنها بالاحسان ..

فقلت : وهل بقي احسـان وراء ما احسنت به : اصطنعتني ، واحللتني في مجلسك محل كل خواصك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ، وسكت وسكت ، وحملت البغلة – وأنا معه في المجلس – اليه ..

وينهي ابن خلدون حكايته مع تيمور بقوله .. « سافرت في جمع من أصحابي الى مصر ، فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينـا الطريق ، ونهبوا ما معنـا ، ونجـونا الى قرية هنـالك « عرايـا » .. ثم .. مر بنا مركب .. فركبت معهم البحر الى غزة ، ونزلت بها وسافرت منها الى مصر ..

وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا » .

● قصص وحكايات

وقد عالج لقاء تيمور وابن خلدون الكثير من الكتاب ، القدماء والمحدثين ، ونسج حوله الكثير من القصص والحكايات، وأفرد له الكاتب الامريكي والتر فيتشل كتابا بعنوان ابن خلدون

وتيمور ، وأبرز من تنـــاوله من المؤرخين العــرب ابن عربشاه، فى كتـــابه « عجائب المقدور فى غرائب تيمور » ، ويروى فى هذا الكتاب رواية مغايرة لما رواه ابن خلدون والفرق بينهما هو الفرق بين من رأى ومن سمع ، يقول ابن عربشاه « لما أقلع السلطان بفلك عساكره المشحون وقع فى بحر العساكر التيمورية قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون وكان من أعلام الأعيان ، وممن قدم مع السلطان .. توجه الأعيان اليه فى تدبير القضية فوافق فكره فكرهم ، فملكوه فى ذلك أمرهم .. فتوجه معهم بعمامة خفيفة ، وهيئة ظريفة ، وبرنس كهو رقيق الحاشية ، يشبه من دامس الليل الناشئة ، فقدموه بين أيديهم، ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم .

وحين دخلوا عليه ، رأى (تيمور) شكل ابن خلدون لشكلهم مباينا ، قال : هذا الرجل ليس من هاهنا ، فانفتح للمقال مجال ، ونشروا سماط الطعام ، فكوّموا تلالا من اللحم السليق ووضعوا أمام كل ما به يليق ، فبعض تعفف عن ذلك تنزها ، وبعض تشاغل عن الأكل ، وبعض مد يده وأكل .. وكان من جملة الآكلين ، قاضى القضاة ، ابن خلدون وكل ذلك وتيمور يرمقهم ، عينه الخزراء تسرقهم ، وكان ابن خلدون أيضا يصوب نحو تيمور الحدق فإذا نظر إليه أطرق ، وإذا ولى عنه رمق ، ثم نادى (ابن خلدون) وقال بصوت عال ..

يا مولانا الأمير . لقد شرفت بحضورى ملوك الأنام ، وأحييت بتواريخى ما مات لهم من أيام ، ورأيت من الملوك فلانا وفلانا ، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها ، وخالطت فى كل بقعة اميرها ونائبها ، ولكن لله المنة اذا امتد بى زمانى ، ومنّ الله علىّ بأن أحيانى ، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة ، والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة ، فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف ، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف ، فأهتز تيمور عجباً ، وكاد يرقص طربا ، وأقبل يوجه الخطاب اليه ، وعول فى ذلك دون الكل عليه ، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها ، وأيام دولها وآثارها ، فقص عليه من ذلك ما خـــرع عقله وخلبه ، وجلب لبه وسلبه » .

ويذكر ابن عربشاه ، كيف تحول ابن خلدون فأصبح موضع رعاية تيمور وفى ضيافته طوال اقامته وحتى رحيله والتى استمرت خمسة وثلاثين يوما . أما الاختلاف بينهما فى الكثير من التفاصيل فيرجع الى أن ابن عربشاه لا يرى فى تيمور سوى غاز جاء يحتل بلاده ، ويصيب أهلها بالنكبات ، وأنه شخصيا عانى الكثير من حملة تيمور ، فقد أخذه أسيرا وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، ومع أمه وأخوته من دمشق الى سمرقند ، وهناك عرف الكثير عن تيمور واعماله ، وتعلم اللغتين الفارسية والتركية ، ثم عين كاتبا للسلطان محمد الأول بن بايزيد الذى سبق أن أسره تيمور فى أحدى معاركه وانتقم

منه بوضعه فى قفص ، ثم عاد ابن عربشاه الى دمشق عام ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م . ورحل منها الى القاهرة ، واستقر بها سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م ، وألف كتابه فيها ، وحياته تلك تزيده بتيمور معرفة ، وتزيده به أيضا كراهية ..

● حريق فى الجامع الأموى

أما بقية القصة ...

فقد استسلمت دمشق لقدرها ، واستولت عليها قوات تيمور بأقل الخسائر ، وبكل أنواع الوعود الكاذبة وما لبث أن انتشر فيها السلب والنهب والحريق ، لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال ، ولم يلتفت الى رقاع الأمان التى كتبها تيمور .. « أما القلعة ، فإنها استعدت للحصار ، وكان نائبها يدعى ازدار ، فحصنها ، وبالأهبة الكاملة مكنها ، وانتظر من السلطان نجدة ، أو مانعا ربانيا يفرج عنه الشدة ، فلم يلتفت تيمور فى أول الأمر اليها ، ولا احتفل بها ولا عرج عليها ، بل صرف همه الى تحصيل الأموال ، وتوثيق الأحمال بالأثقال » .. « وحاصرها ثلاثة وأربعين يوما .. » ابن عربشاه .

وامتدت النيران التى اطلقت بالمنجنيق تأكل المدينة ، ووصلت الى الجامع الأموى ، فسال رصاصه وتهدمت سقوفه وجدرانه ، ودمر عن آخره فى المدينة الجزء الواقع بين المسجد الاموى والقلعة، ويصف ابن خلدون ما جرى بقوله : « كان أمراً

بلغ حداً من الشناعة والقبح » وأعدم أزدار نائب القلعة بعد أن حصل من تيمور على وعد بالأمان ، وعاش أهل الشام مرحلة من الرعب والخوف ، وهاجم تيمور فى خطـــاب له أهل الشام على مســاندتهم للأمويين خلال « الفتنة الكبرى » '

كل هذا وابن خلدون عاكف على كتابة رسالة عن المغرب ، ويقدمها الى تيمور ، ويجالسه يناظره ويحاوره فى الحضارة والتاريخ وماجاء فى الطبرى .. '

وعقب اختبار القوة الذى جرى بين تيمور وفرج ، وبعد اقامة تيمور فى دمشق ثمانين يوما ، انسحب تيمور بقواته ، واتصلت العلاقات بين تيمور والمماليك ، وتمكن تيمورمن أن يحقق عن طريق الاتصالات الودية مالم يحققه بالحرب ، وأدت المراسلات بين تيمور والسلطان فرج الى عودة العلاقات بينهما، فظهرت فى تبادل الوفود والهدايا ، وبعد نجاح تيمور فى اطلاق اسـيره اطليمش ، مقابل ان يطلق ما لديه من أسرى .

وعاد الهدوء من جديد ، وكأن حملة تيمور مثل اعصار عنيف اقتلع الزرع وأرعد السماء ، ثم صفا الجو وهدأت العواصف من جديد .

ولم يحاسب احد ابن خلدون على مادار بينه وبين تيمور ، ولا على أنه كان ضمن الفقهاء المنادين بالصلح والأمان ، فلا

يحق للذين تركوا دمشق تحت الحصار مهرولين أن يحاسبوا أحدا على مواقفه .

وقضى ابن خلدون بقية حياته فى القاهرة ، يواصل تأليف كتابه « العبر » ، وفى كتابة سيرته الذاتية ، والذى وصل فيها إلى قبل التسعة شهور الأخيرة من حياته وكان آخر ما خطه قلمه « لزمت كسر البيت ، ممتعا بالعافية لابسا برد العزل ، عاكفا على قراءة العلم وتدريسه والله يعرفنا عوارف لطفه ، ويمد علينا ظل ستره ، ويختم لنا بصالح الأعمال ، وهذا أخر ما انتهيت اليه .. » .

وأطفأت المنون حياة هذه الروح المتقدة بعد كوارث الزمان المتلاحقة ، وبعد أن قدم بحياته وفكره تلك الأعمال الفذة ، وهو المفكر الكبير والفيلسوف العظيم وعالم علوم العمران الذى ملأ الافق بجلاله ، بعد أن عاش ستة وسبعين عاما ، وانتقل الى رحمة الله يوم ٢٦ رمضان ٨٠٨ هـ - ١٦ مارس ١٤٠٦ م ، ودفن فى مقبرة الصـــوفية بالقرب من باب النصر فى القـــاهرة .

٨

على باشا مبارك

(١٨٢٣ – ١٨٩٣) م

على باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣ م) ، رجل فكر وعمل ، يكفيه ما قام به فى عمارة الأرض وبناء الانسان مع بدايات النهضة المصرية الحديثة فى القرن الماضى .

وهو من أوائل من كتب ترجمته الذاتية فى العصر الحديث ، ولم يكتف بذلك بل ترجم لكل أثر وحجر فى مصر، ورصد التغير الاجتماعى فى عصره.

ورغم إنجازاته ، توقف الكتاب والمؤرخون حيارى أمام موقفه من الثورة العربية والاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ .

وهذا ما حاول أن يقدم له التفسير فى سيرته وكتبه وأعماله .

على باشا مبارك ، أحد الشخصيات التاريخية فى حياة مصر الحديثة ، ساهم فى حركة النهوض الوطنى الحديث ، وأقام لها أساسا راسخا ، وبدأ رحلته من أعماق الريف فى ظروف بالغة الصعوبة ، هى ذات ظروف شعب مصر فى القرن التاسع عشر ، وخاض معركة باسلة ، ورفض الواقع الذى كان يعيشه ، وتطلع الى حياة وآفاق جديدة ، وأصبح أحد الرجال المرموقين ، وساهم فى مسئولية الحكم وتولى الوزارة أكثر من مرة ، وجمع خلالها بين التعليم والاوقاف والاشغال ، فكان بحق مهندس مصر الأول ، وكان فى ذات الوقت « أبو التعليم المصرى الحديث » .

وانتقل من شظف العيش عند سفح الهرم الاجتماعى الى بحبوحة العيش فى قمة الهرم الوظيفى ، ولم تغفل عينه لحظة واحدة عن رسالته فى النهضة وتقديم ما يقدر عليه للبسطاء من أبناء البلاد ..

قام بدوره كاملا فى إحدى الدورات التاريخية الهامة فى القرن الماضى ، وأعطى أهم ما يقدمه مثقف لشعبه ، المعرفة والعمران ، وركز جهوده على نشر التعليم المدنى وإقامة المدارس ، وتطوير نظام الكتاتيب ، وكان له فضل إقامة دار الكتب المصرية ومدرسة دار العلوم ، وكان أول من أدرك أهمية قيام مجلة فكرية تنشر المعرفة وتنمى الذوق والجمال لدى القارىء ، وأصدر مجلة « روضة المدارس » ، ودعا الى تعليم المرأة وخروجها الى الحياة والعمل قبل دعوة قاسم أمين وهدى شعراوى ..

وساهم فى « العمران » وطور القناطر الخيرية وشق الترع والقنوات ، وشارك فى معظم عمليات التوسع العمرانى ، وخاصة تلك التى تمت فى عصر اسماعيل ، وحقق حلم كل مثقف ، عندما سجل تجربته فى كتابه « الخطط التوفيقية » ، ذلك العمل الفذ الذى يعتبر من أهم الكتب التى صدرت فى القرن الماضى ، وعبر من خلاله عن حبه العميق لكل حجر وأثر، ورصد التغير الاجتماعى الذى تعيشه البلاد ، وسجل شوارع وجوامع ومدارس وحمامات وأسبلة القاهرة ، وكأنه يخاف عليها

من الاندثار أو النسيان ، وسجل المدن والقرى والنجوع على طول الوادى وترجم لأعلامها ، ولم يؤرخ فى خططه للقاهرة وحدها ولا للحكام وحدهم ، بل استعرض بانوراما الحياة المصرية ، وصدرت خططه فى عشرين جزءا وخمسة مجلدات، أعادت الهيئة العامة للكتاب نشر ثمانية أجزاء منها .

وبعث من جديد فى سفره القيم نهج المقريزى فى خططه ، فوصل حاضر الخطط بماضيها ، وأظهر مقدرة فائقة على تحقيق المعالم والمواقع ، ومقارنتها بما كانت عليه فى الماضى، ووضع رحيق خبرته التى اكتسبها خلال الوظائف العديدة التى تولاها فى هذا الكتاب .

وهى نفس المحاولة التى قام بها نجيب محفوظ على نحو آخر ، عندما رصد الحياة الاجتماعية فى اعماله الروائية وخاصة الثلاثية ، وهى ذات المحاولة التى طورها الدكتور جمال حمدان فى سفره الكبير « مصر .. دراسة فى عبقرية المكان » .

وكل هذه الاعمال تعكس ولاء المثقف العميق لوطنه وشعبه .

● عمارة الأرض وبناء الإنسان

قضى على مبارك حياته فى صبر ودأب الفلاح المصرى ، يبنى ويعمر ويبذر فى الأرض المصرية بذور التقدم والنهضة ،

ويسعى ليلحق وطنه بمنجزات العصر والحضارة ، ولم يكتف بدوره كمهندس تكنوقراطى ، وانما أدرك أهمية أن يتعلم ويثقف الأهالى ، فتلازمت جهوده فى اقامة البناء المادى مع الاهتمام بعقل الأمة ووجدانها ، ووزع جهوده على عمارة الأرض وبناء الإنسان .

ولم يفعل مثل كثيرين غيره ، يتزود بالمعرفة والعلم ، وينتقل إلى فلك جديد يبعده عن أهله وبيئته ، بل نجد على مبارك فى كل أعماله يسعى إلى ترقية البسطاء من شعبه ، ويسهم فى يقظة الفكر ونشر التعليم ، ويوظف المناصب التى يتولاها فى خدمة الاهالى ، لعله يرد بعض حق الوطن عليه .. يقول فى سيرته الذاتية « إنى لمعترفا بفضل هذا الوطن العزيز ، فقد نشأت فى ظله وتقلبت فى مهده ، وتربيت فى حجر كفالته وتعهده ، حتى صرت من أبنائه المعدودين ، ورجاله المعروفين ، وتمتعت صغيرا وكبيرا بكثير من خيراته وثمراته، ولاأزال متمتعا بطيباته ، فأجدنى وإن استوفيت الجهد ، وقضيت العمر فى خدمته ، لم أقم بعشر معشار ما علىّ من واجباته وحقوقه ... ولم يمنعنى هذا من بذل جهد المقل .. وأن أخدم وطنى بكل ما نالته يدى وبلغ إمكانى مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع ، قل أو جل كالسعى فى استكثار المكاتب والمــدارس .. وتعميم التربية والتعليم .. ونشــر الكتب المفيــدة .. »

● **الفطنة والعناد**

وهو أول من كتب سيرته الذاتية قبل الشيخ الإمام محمد عبده التى بدأها وأكملها السيد رشيد رضا ومذكرات الزعيم أحمد عرابى وبعده تتابعت السير الشخصية ، التى كان بعضها فى إطار عمل أدبى ، مثل « ليالى سطيح » لحافظ إبراهيم « والأيـــام » لطه حسين ، « وحياتى » لأحمـد أمين ، « وتربية » سلامة موسى ، « وأنا » للعقاد ، « ومعى » لشـوقى ضيف ، « ويوميات طالب بعثة » « وأوراق العمر » للدكتور لويـــس عوض و« زهرة العـمر » و« ســجن العـمـــر » ، «ويوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم . « وخليها على الله » و« كناسة الدكان » ليحيى حقى ، وغيرها .

وهذا ما سجلته سيرته الذاتية :

ينتمي على مبارك لأسرة فقيرة وإن كانت مصرية عريقة ، تعلم القراءة وحفظ القرآن فى صباه على يد شيخ أعمى فى قرية برنبال - دقهلية ، ومن يومها ظل يخوض رحلة كفاح باسلة ، سلاحه الفطنة والعناد ، يتغلب دائما على التحديات التى تواجهه ، وترك لنا تفاصيل معاناته فى سيرته الذاتية . ونقل طفولته البائسة ، وصحبناه وهو يهرب من شيخه الأعمى ومن أسرته ، لكى يختار بنفسه مصيره ، وهو يعانى من السجن ظلما لأنه تجرأ وحصل على حقه من صاحب العمل ،

وفى كل هذه الظروف القاسية ، لم يتخل عن حلمه فى الالتحاق بالمدرسة . ويصف معاناة طفولته : « راسخ فى ذهنى ، ما كان مرتبه علىّ مؤدبى فى صغرى ، أن آتى اليه بشىء من المنزل ، فكنت أنحابل تحايل اللصوص حتى أختلسه وآتيه به ، وإن أمتنعت أو أست بأقل مما طلب توعدنى أو ضربنى ، فكان يعاملنا معامله الخدم (١) .. ولكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب اليه .. واخـترت ألا أكون فقيها ، وإنما أكـون كاتبا ، لما كنت أرى للكتـاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام .. »

وعمل بالفعل كاتب قسم ، ومن جديد يسىء الكاتب – الذى عمل معاونا معه - له ، حتى شج رأسه بمقلاة بن ، ورفض الذهاب إلى الكاتب كما رفض الذهاب الى الشيخ ، وعندمايعمل كاتبا فى السجن بعد الإفراج عنه ، لفت إنتباهه وآثار إهتمامه كيف أتيح لعنبر أفندى المأسور الوصول الى مركزه وهو الأسود الحبشى ، والمناصب يحتكرها الاتراك والشراكسة ، وهنا يضع الفتى الأسمر يده على السر ، عندما علم أن عنبر أفندى تعلم فى إحدى المدارس التى أقامها محمد على ، وأدرك أن التعليم هو الطريق ويسجل فى سيرته .. « وددت أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها .. والحكام يؤخذون من المدارس .. » .

وأخذ تراكم الخبرة من تجاربه القاسية يحدد مساره ، وكلما قست عليه الظروف قويت عزيمته ، وصمم على أن يتعلم مهما كانت المشاق ، وعزم على الوصول إلى المدرسة فى القاهرة ماشيا ، وفى الطريق يلتحق بإحدى المدارس العسكرية التى أقامها محمد على فى « منية العز » وتصبح خطوته الأولى فى طريق طويل ، فيختار منها لتفوقه لكى يلتحق بمدرسة الجهادية فى قصر العينى ، ومنها الى مدرسة المهندسخانة ، وأخيرا يختار الفتى ضمن ٧٠ طالبا فى بعثة الأنجال التى تضم أربعة من أبناء أسرة الخديو للتعليم فى فرنسا .

وهـــاهو فى بـــاريس عـــام ١٨٤٤ بعد برنبال ومنية العز والقاهرة ....

ولا بد أن هذه التجربة الفريدة هى التى أوحت لنجيب محفوظ فى روايته حديث المساء والصباح ، بتلك الشخصية التى أختطفها رجال محمد على من حى الجمالية ، للتعليم فى المدارس ، وأرسل لتفوقه فى بعثة لدراسة الطب فى فرنسا .

وفى رحلته تلك الشاقة يخوض على مبارك صراعا مريرا مع ظروفه القاسية ومع والده الذى يخاف على ابنه من الغربة، ويعمل كل ما يستطيع لمنعه من الرحيل ، وعلى قدر عناده كان عناد والده ، الذى ينتزعه من المدرسة ويحبسه فى البيت ويعود الفتى ويتسلل ويصل إلى المدرسة ولا يبرحها ، فى صراع ارادات طويل ، ولم يكن الفتى قليل الحيلة ، وإنما

يتغلب على المصاعب التى تعترضه ، ولا يستسلم للأقدار ، وعندما يشج الكاتب رأسه لا يخضع له وإنما يتركه ويمضى باحثا عن ظروف أفضل ، وعندما يمتنع صاحب العمل عن تسليمه راتبه ... « امسكت عندى قدر ماهيتى » .

وعندما يصل إلى باريس ولا يعرف أية كلمة فرنسية وتستعصى عليه اللغة الجديدة .. « سألت عن كتاب الأطفال، فنبئونى عن كتاب فاشتريته ، واشتغلت بحفظه ، وشمرت عن ساعد جدى فى الحفظ والمطالعة ، ولزمت السهاد ، وحرمت الرقاد ، فكنت لا أنام من الليل الا قليلا حتى كان ذلك ديدنا لى ، فحفظت الكتاب بمعناه عن ظهر قلب ، ثم حفظت جزءا كبيرا من كتاب التاريخ بمعناه أيضا . وحفظت الأشكال الهندسية والاصطلاحات ، كل ذلك فى الثلاثة أشهر الأولى » ، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يصبح من الثلاثة الأول فى البعثة التى قضى بها ست سنوات ، وأن ينتقل بعدها إلى قمة الهرم الاجتماعى .

● مشروع النهضة

وتسير حياته فى مصر مضطربة هائجة مثل عصره ، فالجميع رهن بإشارة الحاكم ، والجميع أسير ما يحاك حوله من دسائس يرتفع حينا إلى أعلى المناصب ويفقد وظيفته حينا آخر ، ويبحث عن مصادرالرزق ، إما بزراعة الأرض أو العمل

فى التجارة ، يتذكر قائلا .. « كنت أرى التقهقر ونفاد ما استحوذت عليه » ، ويذكـر .. « أنه يعلم ما يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء .. » (١) ومع ذلك عاش فى كنف هذه العائلة طالما نجح فى تحقيق رسالته وتنفيذ مشروعه فى ترقية أبناء جلدته وتطوير حياتهم .

ويتميز موقف الرجل خلال كل أطوار حياته ، بالسعى لتحقيق رسالته فى مقاومة الجهل وبناء الإنسان وهو يعرف أن هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق فى مصر الا عن طريق الحكومة وجهاز الدولة ، ولعله أول من كتب عن طبيعة الوادى وتأثير نهر النيل على وجود سلطة مركزية حاكمة هى الحكومة أى الأداة الفعالة لنفع البلاد والعباد فيعكف عند إقصائه -- الذى كثيرا ما تكرر – على تأليف الكتب استكمالا لرسالته .

ولعل ما رواه فى واقعة تكليف الخديو سعيد له برسم الاستحكامات العسكرية فى « أبو حماد » قرب رشيد ، ما يعكس أسلوب تعامله مع الخديو ، فبعد إنجاز مهمته لم يقدر على تقديم رسوماته إلى الخديو ، وبنصحه مأمور التشريفـــات .. « كن معنا على الـــدوام لعلك تجد فرصـــة للقاء .. » ، ويلازم على مبارك حاشية الخديو ثلاثة أشهر ، ينتقل معهم من بلد الى بلد ، ومن موقع الى موقع ، ومن قصر الى قصر ، حتى كان يوما ووقع نظر الخديو عليه ، فناداه وسأله عن الرسم ، وأصبح بعدها واحدا من رجال المعية ،

وكان مبدؤه الدائم الطاعة لولى الأمر ، وكان هذا موقعه مع عباس الأول وسعيد واسماعيل وتوفيق ، ومن موقعه ينشر التعليم ويقترب كل يوم من تحقيق مشروعه فى النهضة .

● تراجم الأعيان

كما يظهر موقفه من خلال قراءة تراجم الاعيان التى جاء فى الخطط عند حديثه عن البلدان المصرية المختلفة ، وفى روايته للانتفاضات الفلاحية الثلاث التى سجلها وحدة ، وكان أول من رصد الحركة الاجتماعية فى القرن الماضى ، ولاحظ خلالها دور ولى النعم فى مصير الاعيان ، فالحكومة هى المصدر الرئيسى للنفوذ والفلوس ! ، فالنفوذ فى الريف يتركز فى بقايا عائلات المماليك والملتزمين السابقين ، وعند استعراضه لمدينة اسيوط يتحدث عن .. « قيسارية محمد بك الدفتردار التى بناها سنة ١٢٣٨ هـ ، وقت كان مديرا لأسيوط » ، وعند حديثه عن أعيان الغربية يذكر ثاقب باشا الذى شغل عددا من الوظائف ، ويحصر ثروته فيقول .. « ومنها ٢٠٠ فدان أنعم عليه بها الخديو عباس » ، ويلاحظ وجود أرستقراطية ادارية وعسكرية « .. كثيرا ما تغتصب أراضى الميرى » ويذكر عند الحديث عن عزبة شلقان أنه .. « جعل على أرض مساكنها حكرا يدفع للميرى كل سنة بالعدالة ضرورة أن هذه الأرض ملك للميرى ، وكان المشايخ

والحكام يأخذونه لأنفسهم بمحض الظلم (!!) » ويذكر عن رفاعة الطهطاوى ان مصدر ثروته الضخمة ، هى منح الأرض التى حصل عليها خلال عهود محمد على وابراهيم وسعيد واسماعيل .. « فبلغ جميع ما ملكه حين وفاته ١٦٠٠ فدان غير ماجدده من الاملاك والعقارات فى بلده وفى القاهرة » .

ومن جانب آخر يدين على مبارك الانتفاضات الثلاث بعد أن يسرد تفاصيلها ، ويرى فى كل منها مصدر تعاسة القائمين بها ، وسببا فى زوال النعمة وخروجا على طاعة « الامام » ! ، وشهدت قنا الانتفاضة الأولى عندما تزعم أحد المشايخ حركة الفلاحين ضد قرارات محمد على ، وطرد الشيخ عمال الحكومة وأقام حكما محليا، وتمكن محمد على من القضاء على هذه الانتفاضة بعد شهرين بعد أن جرد لها حملة عسكرية قضت عليها ، أما الانتفاضة الثانية فشهدتها الاقصر ضد الفرمانات الجديدة لمحمد على ، وتذمرا من النظم الجديدة ، أما الانتفاضة الثالثة ، فقد وقعت فى قرية « قاو » فى أوائل عهد اسماعيل سنة ١٨٦٥ م ، ويسجل بالنسبة لواقعة « قاو » .. « كان أهلها أهل يسار لخصوبة أرضهم وجودة محصولها .. فأتاهم من كان سببا فى ازالة تلك النعم عنهم وابادة كثير من أنفسهم وأموالهم وتخريب بيوتهم » .

وعندما يتحدث عن ظروف تدهور بعض الأسر ، بسبب موقفها المناهض للسلطات الحاكمة ، فيذكر عائلة ابراهيم

الغيبيســى (طهطا) ، الذى كان يشغل منصب ناظر قسم فى عهد محمد على، وخلال الصراعات التى قامت فى هذه المنطقة بين الصوامعة والوناتية ، كان يتعصب لقومه سرا ، فنفت الحكومة ابنه ومات ولم يعقب ذكورا .. » .

وفى المقابل يروى قصة عمدة العقال (أسيوط) عبد العال العقالى أيام انتفاضة الفلاحين فى قاو « جمع أهل البلد ، ومنعهم من العصيان ضمن من عصى ، بل قام بهم مع العساكر على العصاة فحظى بالرضا والقبول ، وترك أملاكا كثيرة وقصورا مشيدة وبنى جامعا فاخرا ومنزلهم عامر إلى الآن » .

● التطــور والثــورة

يقول على مبارك .. " لا يخفى أن تربية الملل (الشعوب) أمر صعب ، يلزم لها زمن طويل لأن هناك عوائد قديمة ، وأخلاقا راسخة فى الأذهان ذميمة ، وأفكارا فاسدة ، واعتقادات كاسدة ، فلا تزول بمجرد بعض التجددات ، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم فى السن إلى الممات ، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان ، فلا تنعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو أكثرهم . فعلى حكم العقل ، يلزم التربص إلى انقضاء ثلاثة أجيال، أى مائة سنة أو مائة وخمسين سنة "

وهنا يبدو فكر على باشا مبارك رافضا للفكر الثورى ومن المنتمين إلى الدراسة الليبرالية التى تؤمن بالتطور المتدرج ، وأن الحياة الاجتماعية تحمل بذور عناصر التطور ، وتملك آلية إصلاح المسار والتغلب على العقبات ، ويعارض الثورة بما تحمله من إحتمالات الفشل وما تنادى به من التجديد والتجريب، ويعتمد على النمو الداخلى للمجتمع ..

ولعل القصة التى حكاها ووقعت فى " منذرته " أيام انتشار أفكار الثورة ، فى مرحلة النهوض وتحدى الأجنبى المتمثل فى صندوق الدين – تؤكد رأيه ورفضـــه للثورة وإيمانه بالإصلاح المتدرج .

وذلك عندمـا يـروى أنـــه « فى أوائـــل عهدى بالحكومـــة، بعد عودتى من أوروبا ، أمرت يوماً من الأيـــام أن أذهب إلى سراى رأس التين لأقابل الوالى ، فأدخلونى غرفة أنتظر ، وكان ينتظر معى فى الغرفة اثنان لا يعرفانى وكانا من هذا العنصر – الترك والشركس - وطالت مدة الانتظار وأنا صامت، أما هما فلم يكن لهما حديث سوى ، كيف يصل هذا الفلاح ، إلى قصر الوالى .. ؟! وهل يعقل أن يدخل فلاح القصر ، وكان حديثهما يدور باللغة التركيـــة ظنا منهم أننى لا أعرفهـــا » . ويختتم حكايته قـــائلا .. « واصبح هذا الفلاح اليوم ناظرا ، وهذا مكسب كبير لنا ، فإذا صبرنا فسنحل محل هؤلاء الشركس».. وهو هنا يقدم حيثياته ضد الثورة

والتغيير المفاجىء فى أعلى قمة السلطة ، ويختار التطور منهجا وأسلوبا فى التغيير ، وهذا طبيعى معه كأحد العلماء والتكنوقراط الذى حقق الكثير من إنجـازاته بوصفه موظفاً عمومياً .

ويلاحظ أن مدرستى الثورة والاصلاح وجدا جنبا إلى جنب فى الفكر المصرى الحديث ، ونجد عبد الله النديم فى طليعة أصحاب الموقف الثورى ، وتردد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بين الثورة ومنهج التطور المتدرج ففى ايامه الاولى وقف مع الثورة ، حتى يوم انفصاله عن جمال الدين الأفغانى فى باريس . ورفضه لفكرة الثورة ، والوصول إلى أن يلعن فيها لفظ « السياسة » ، وتركيزه بعد عودته إلى القاهرة على الفكر والتعليم والتثقيف والتزامه نهج التطور التدريجى .

● على مبارك والثورة

فإذا كانت جهود على مبارك قد ساهمت بالقطع فى التمهيد للثورة العرابية ، فقد نال عدد كبير من رجالها حظهم من التعليم فى المدارس التى أقامها ، ولم يعد مقبولا بعد أنتشار التعليم أن تقتصر المناصب العليا على الأتراك والشركس ويستبعد أبناء البلاد، فما هو موقفه منها ؟!

لقد جرف تيار الثورة العاتى المصريين جميعاً ، وتحدى هذا النيار فى إحدى اللحظات التاريخية نهجه وأسلوبه ، وكان

من العسير عليه – وهو الراصد للحركة الاجتماعية فى مصر – أن يكون بعيداً عنها ، خاصة وهو الفلاح الذى شق طريقه من أعماق الريف،الحالم برفقة بنى قومه،وتعاطف مع الثورة بالفعل فى أيامها الأولى ، وكانت « منذرته » كعبة لرجالها ، وكان يتردد عليها زعيم الثورة أحمد عرابى نفسه ، ويسجل تاريخ الثورة أن على مبارك كان يتبرع لها بسخاء ، كما ينسق فى عمله العام معها ، ويتضامن مع محمود سامى البارودى فى وزارة رياض ، ويسجل بلنت أن كلا من على مبارك والبارودى كانا يضعان العقبات فى طريق رياض باشا سنة ١٨٨١ ، لكى يعود شريف باشا لرئاسة الوزارة كجزء من خطة العرابيين ، ويصبح على مبارك أحد أقطاب حزب الثورة ، الحزب الوطنى .

كانت هذه مواقفه قبل دخول الثورة مرحلة التحدى والصدام التى أعقبها السقوط . وهنا وقف الكتاب والمؤرخون حيارى أمام مواقف تبدو متضاربة من الثورة واحداثها ، وأمام تلك الانجازات الهامة التى حققها للبسطاء من شعبه .

فهل تخلى على مبارك عن الثورة فى لحظاتها الحرجة ..؟!

وما هو موقفه من القوات البريطانية التى احتلت البلاد وما جرته على مصر من ويلات .؟! لقد وقف على مبارك مع رجال الثورة عندما كانوا قوة داخلية يسعون إلى التغيير فى اطار النظام القائم، ولكن عندما انزلقت إلى مرحلة الصدام مع

الخديو ومع القوى الأجنبية المتربصة ، كان له معها شأن آخر، وأصبحت الأحداث السريعة المتلاحقة تمثل تهديداً حقيقياً على كل ما حلم بتحقيقه .

● ضرب الاسكندرية

لقد ظهر موقفه الجديد من الثورة ، بعد ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ، وانسحاب القوات المصرية أمام قوات الاحتلال ، وبقاء الخديو فى الاسكندرية ، ورأت قيادة الثورة فى القاهرة ، أنه إما أن يكون الخديو اسيراً وإما أن يكون قد انحاز لقوات الاحتلال ، وفى الحالتين لا يجوز ترك البلاد بدون سلطة شرعية عليا ، وقام المجلس العرفى ليملأ الفراغ وعقد اجتماع فى ديوان وزارة الداخلية ، وقر رأيهم على إرسال وفد إلى الاسكندرية كى يطلبوا من الخديو التوجه إلى القاهرة حتى يصبح الحاكم الشرعى فى البلاد .

ويكمل عرابى فى مذكراته : « وانتخب على باشا مبارك وزير الأشغال سابقا - فى زمن الاستبداد - رئيسا للوفد» ، وتظهر بعض التفاصيل مما جاء فى استجواب حسين باشا الدرمللى أمام المحكمة ، الذى يذكر أنه خلال الاجتماع ، قام الشيخ عليش منادياً بخلع الخديو ، وظاهره عدد من الضباط منهم على الروبى ، ووقف البعض وبينهم على مبارك دون ذلك ، وقام محمد عبيد بالرد عليهم ، (استشهد فيما بعد وهو يقاتل

قوات الاحتلال) وقال على مبارك : «ما الذى يمنع من أن تكون أخبار الاسكندرية كذباً ؟ ، ورد عليه عبد الله النديم بحدة : وماذا بشـأن شهادة ٣٠٠ ألف نسـمة خرجوا من الإسكـندرية ؟ ! »

وسرعان ما تحول على باشا مبارك من مؤيد إلى وسيط ومن وسيط إلى طرف ، وتخلى عن مهمته ، ويسجل عبد الله النديم هذه الواقعة بقوله . . « وتوجهوا إلى كفر الدوار ، ومنه إلى حزب البواد، فانضم على مبارك وأحمد السيوفى إلى أهل المين بخفى حنين » .

وعندما يروى على باشا مبارك أحداث الثورة العرابية فى سيرته الذاتية - التى لم تتجاوز ثلاث صفحات ، ويتعرض خلالها لهذه الواقعة .. فيقول : « تشكل بالقاهرة مجلس عرفى بأمر عرابى للنظر فى المصالح ، وكثيرا ما عقدوا مجالس للنظر فى مسائل تعرض من طرف العرابى وحزبه ، وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ، ندب اليه كثير من الأمراء والعلماء والروحانيين وأعيان البلد ، وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصالح ...، فعينت سفيرا إلى الأسكندرية مع جماعة من الوطنيين ، فلما وصلنا إلى الاسكندرية تكلمت فى عمل طريقة لما يوجب خمود الفتنة ، أجاب جناب الخديو، وصارت المكالمة فى هذا الشأن مع الانجليز ، لكن لم ينجح ذلك لمزيد نفر العسكرية !! »

كما يذكر فى ذات السيرة والتى كتبها فى ظل الخديو توفيق وبعد فشل الثورة « إن ضباط الثورة العرابية الذين تظاهروا لقطع مرتباتهم ، جرت منهم أمور جاوزت حد الأدب » ويقول فى موضــع آخر : « إن العرابيين تدخلوا فيما ليــس من شأنهم .. وأن الغرور ركبهم عندما سالمهم توفيق أول الأمــر .. »

وهو هنا يعبر عن حقيقة موقفه من الثورة وأحداثها ، كما يلاحظ أنه عندما يستعرض فى كتابه الخطط ما قام به فى وزارة الأشغال فى وزارة رياض .. يقول : « وهكذا كانت الأعمال قائمة على قدم السداد ، وكانت هيئة النظار سائرة فى الطريق الجادة ناشرة ألوية العدل والتسوية بين القوى والضعيف ، والرفيع والوضيع ، فاستوجب ذلك إثارة الحقد فى صدور أرباب الأغراض فتقولوا على هذه الهيئة وطعنوا فيها واختلط كثير منهم بضباط العسكرية وأوغروا صدورهم وألقوا فى آذانهم أنهم الأحق بتعديل القوانين والتصرف فى الحكومة حيث أنهم أهل الوطن وأصحاب القوة .. »

ويعلق فى موضع آخر على وزارة البارودى التى أحتل فيها عرابى وزارة الجهادية ، قائلا : « فلم تخمد نيران الفتنة ، وانضم إلى الطائفة العرابية " الخوارج " كثير من أهل البلاد وأعيانها ما بين راغب وراهب »

وفى المقابل يسجل عرابى .. « أن على مبارك كان وزيرا للأشغال فى وزارة شريف باشا التى أقامت زينة فى حديقة الأزبكية دامت ثلاث ليال ابتهاجاً بدخول الإنجليز للقاهرة ، وأن على مبارك كان يجلس مع الوزراء خلف توفيق ،وهو يعرض جنود قوات الاحتلال فى ساحة عابدين » ..

ليس هذا فحسب ، بل من يقلب مؤلفات على باشا مبارك ، يلاحظ أنه تجاهل معظم قادة الثورة فى تراجمه ، وأحيانا تجنب البلاد التى نشأوا فيها ، فلم يترجم فى خططه للزعيم أحمد عرابى، ولا لعبد الله النديم ، ولا حتى للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ومن ترجم لهم من الثوار لم يعالج موقفهم خلال الثورة ، بل ويلاحظ أيضا أنه لم يترجم للزعيم الكبير عمر مكرم الذى له الفضل فى تنصيب محمد على والياً على مصر ، ثم تخلص منه محمد على ونفاه خارج البلاد ، فهل تجاهل هؤلاء لكى لا يغضب الأسرة العلوية ! .

● رحلة علم الدين

ويقدم على باشا قصة حياته فى عمل فنى هو «رحلة علم الدين» فى شكل قصصى ، يلائم التعدد والتنوع فى الموضوعات التى يتناولها ، يقارن خلال هذا العمل بين الشرق والغرب ، بين الماضى والحاضر .

ويطرح خلالها أفكاره حول النهضة وكيفية تحققها ، فى صور شتى ، السرد والحوار ، فى عديد من المسامرات ، يقدمها بقوله .. « اشتمل على جمل شتى من الفوائد المتفرقة فى الكثير من الكتب العربية والافرنجية ، فى العلوم الشرعية والفنون الصناعية .. ، وقد قسمته إلى مسامرات ، ينتقل فيها القارئ تنقل المسافر ، ويجد فيها فكاهة المسامر .. »

ويصل فيها إلى الشكل أو الأسلوب الروائى كصيغة جديدة تحل محل المقامة والمقال .

ويحكى فى هذا الكتاب أهم أرائه الاجتماعية ، وهى فى صورة رحلة إلى أوروبا ، واكتشاف أهمية المدرسة الحديثة كوسيلة للحراك الاجتماعى .

ويبرر موقفه من النظام القائم الذى كان يأخذ دائما موقف الولاء ، يقول .. « إن النظر إلى السياسة كميدان لا تحمد عقباه ، أو كمكروه يجب تجنبه » رغم أنه تولى العديد من المناصب الوزارية ، وهذا يعنى ترادف كلمة السياسة عنده مع التمرد والثورة .

وبين سيرته الذاتية وقصة علم الدين الكثير من وجوه التشابه ، فترى مفهوم التعليم كما يؤكده ، وكما عاشه ، والذى يسترشد بضرورة نقل العلوم الحديثة ، وضرورة تعلم اللغات الأجنبية ، للوصول إلى ماوصل إليه الغرب من الفنون والصنائع ...

ويدعو فيه إلى السفر والترحال ، بعد أن سافر هو فى بعثة إلى فرنسا ، يقول .. « ألا ترى أن البلاد الأورباوية بعد أن كانت فى حالة من التوحش والخشونة ، قد إنتقلت إلى درجات الكمال ، وبلغت فى الاعتبار والسطوة مالم يبلغه غيرها من الملل ، وهل لذلك سبب غير إتساع دائرة العلم والمعلومات عند أهلها مع ما أضافوه إلي ما تعلموه مما أخذوه من الأمم المجاورة لهم ، خصوصاً ما أخذوه عن أهل الشرق ...

وما من سنة تمر إلا وترى ألوفا من أهل أوروبا تسيح فى الأرض، فلا يمرون بشىء إلا رسموه ، ولا يرون أثرا إلا نأملوه، وربما شرحوه وفى بلادهم نشروه ، وبهذه المثابرة وصلت أوروبا إلى التقدم فى العلوم واكتشاف بقاع مستجدة ، فاستحوذوا عليها ... وجلبوا إلى أرضهم جميع خيرات البقاع .....

« رأيهم فى كل أمر نافذ ، وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ، ولا شك أن الذى أوصلهم لهذه الدرجة ليس إلا العلم وكثرة السياحة، إذ لو إقتصروا على معلوماتهم الأولية ومعارف أبنائهم فى الجاهلية لما وصلوا لشىء من ذلك .. »

ويقف أمام تلك المفارقة التى جعلت الأوروبيين يعلمون من أمور بلادنا وما بها أكثر مما نعلم ..

وهكذا وقف أمام حضارة أوروبا ، وسجل ضرورة اللقاء والتفاعل ، وأعلن عن إعجابه بمظاهر التقدم الأوروبى ، وضرورة اسنلهام جوهرها .

ويقول « فساد القمة هو الذى أسقط هذه الأمة من القمه »

وأخيرا ..

لا شك فى فضل على مبارك على مشروع النهضة فى مصر ، ويمكن وليكن موقف على باشا من الثورة قائما على إيمانه العميق بالتطور والتدرج بديلا عن الثورة ومخاطرها ، وليكن دافعه إلى ذلك حرصه الشـديد على إستكمال مشروعه الذى قطع فيه شوطا كبيراً .

ومع التسليم بتقديره الدقيق لموازين القوى ، ولمن سيكون ا الغلبة ..

ولكن علينا أن نتوقف طويلاً ، وهو يعبر إلى الجانب الآخر، يعبر من معسكر الثوار إلى معسكر الأعداء فى إحدى اللحظات التاريخية الدقيقة ، وعندها لن يكون من الإنصاف القاء اللوم على أولئك الذين طالبوا بالحرية وحلموا بالتقدم ، وجاهدوا فى سبيل وطنهم ، وحتى إذا إنتهى جهادهم وتضحياتهم إلى الخسران .

فهرس

صفحة

روايات الهلال تقدم

إنكسار الروح

بقلم

د. محمد المنسى قنديل

تصدر ١٥ مارس سنة ١٩٩٢

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

الهلال

المجلة الثقافية الأولى
فى مصر والعالم العربى

مائة عام
فى خدمة الثقافة والفكر والفن

تصدر أول كل شهر
رئيس التحرير

مصطفى نبيل


سانتو ٢٠٠٠
مسحوق معطر لغسل
ويطهر لجميع
أنواع الغسيل
سانتو
٢٠٠٠
إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب قصة ثمان سير عربية ، كتبها ثمان شخصيات بينهم الكاتب والسياسى والفيلسوف والمؤرخ والمتصوف ، وتمر هذه السير زمنيا من القرن الرابع الهجرى حتى القرن الرابع عشر ، وتغطى جغرافيا رقعة عالم الإسلام الممتد من بخارى إلى الأندلس .

فالسيرة مزج دقيق بين ما هو ذاتى وما هو عام ، ونقطة وسط بين الشخصى والموضوعى ، وهى تقدم صورة حية نابضة بالحياة لأحداث وأفكار وقعت بالفعل .

وهى فن أدبى رفيع ، أمد الدراسات التاريخية والاجتماعية بمادة لا تنضب من الصور الحية ، تكشف الظلال والأضواء والألوان فى الوقائع التى تتناولها .

وكل من يكتب تجربته بصدق يقدم عملا فنيا خالصا ممزوجا بشحنة من مشاعر وأحاسيس صاحبها ، مما يجعلها شيقة وجذابة وتصبح ضربا من القص الحى الجميل .

وقراءة سير كل من ابن سينا ، والمؤيد لدين الله ، والإمام الغزالى ، وأسامة بن منقذ ، وعمارة اليمنى ولسان الدين الخطيب وابن خلدون ، وأخيراً على باشا مبارك ، قراءة هذه السير متتابعة تظهر ما فى تاريخ الفكر العربى من كنوز . مما يعزز الثقة بما بلغناه ، ويحيى الأمل فيما يمكن أن نبلغه ، ونلمح إزدهار وتدهور الحضارة يرويها شاهد عيان .